



lisanarabs.blogspot.com

كتاب الأوطان والبلدان

تأليف
أبي عثمان عمرو بن بحر الباها

١٥٠ - ٢٥٠



خاتمة درس
عند السلام محمد هارون

lisanarabs.blogspot.com

الناشر
مكتبة المخابن بيضن



تم تحميل هذا الكتاب من
مكتبة لسان العرب



<https://lisanarabs.blogspot.com>

لمزيد من كتب اللغة العربية القديمة والحديثة
تابعونا على
مكتبة لسان العرب



<https://lisanarabs.blogspot.com>

١ - فصل

من صدور كتابه في الأوطان والبلدان^(١)

زَيَّنَكَ اللَّهُ بِالْقُوَىٰ ، وَكَفَاكَ الْمَهْمَ منْ أَمْرِ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ، وَأَثْلَجَ
صَدَرَكَ بِالْيَقِينِ ، وَأَعْزَكَ بِالْقِنَاعَةِ ، وَحَكَمَ لَكَ بِالسُّعَادَةِ ، وَجَعَلَكَ
مِنَ الشَاكِرِينَ .

سَأَلَتْ - أَبْقَاكَ اللَّهُ - أَنَّ أَكْتَبَ لَكَ كِتَابًا فِي تِفَاضُلِ الْبَلَدَانِ ،
وَكِيفَ قِنَاعَةُ النَّفْسِ بِالْأَوْطَانِ ، وَمَا فِي لِزَوْمِهَا مِنَ الْفَشَلِ وَالنَّقْصِ^(٢) ،
وَمَا فِي الْطَّلْبِ مِنْ عِلْمِ التَّجَارِبِ وَالْعُقْلِ .

وَذَكَرَتْ أَنَّ طُولَ الْمَقْامِ مِنْ أَسْبَابِ الْفَقْرِ ، كَمَا أَنَّ الْحَرْكَةَ مِنْ
أَسْبَابِ الْيُسْرِ ، وَذَكَرَتْ قَوْلَ الْقَائِلِ : « النَّاسُ يَازِمُونَهُمْ أَشَبَهُمْ مِنْهُمْ
بِأَبَائِهِمْ » .

وَنَسِيَتْ - أَبْقَاكَ اللَّهُ - عَمَلَ الْبَلَدَانِ ، وَتَصْرِيفَ الْأَزْمَانِ ، وَآثَارَهُمَا
فِي الصُّورِ وَالْأَحْلَاقِ ، وَفِي النَّهَايَاتِ وَالْأَدَابِ ، وَفِي الْلُّغَاتِ وَالشَّهْرَاتِ ، وَفِي
الْهَمِّ وَالْهَيَّاتِ ، وَفِي الْمَكَاسِبِ وَالصَّنَاعَاتِ ، عَلَى مَادِيرَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ
بِالْحَكْمَةِ الْلَّطِيفَةِ ، وَالْتَّدَابِيرِ الْحَمِيمَةِ .

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْاِخْلَافِ سَبِيلًا لِلَاِتِلَافِ ، وَجَعَلَ الشَّكَّ
دَاعِيَةً إِلَى الْيَقِينِ ، وَسُبْحَانَ مَنْ عَرَفَنَا مَا فِي الْحِيَةِ مِنَ الدُّلُّ ، وَمَا فِي

(١) لم يرد في غير هذه المجموعة ، وهو غير كتابه « الحين إلى الأوطان »، الذي تقدم
نشره في الرسائل ٢ : ٣٨٣ - ٣١٢ . وقد تعرض ريشل لبحث كتاب الحين إلى الأوطان في
ص ٤٨٨ . وقد حل المسودي في مروج الذهب ١ : ٩٩ - ١٠٠ على هذا الكتاب، وسماه « كتاب
الأمسار وعجبان البلدان » .

(٢) بـ : « والنفس » ، صوابه فـ .



الشَّكُّ من الْوَحْشَةِ، وَمَا فِي الْبَقِينِ مِنِ الْعَزَّ، وَمَا فِي الإِخْلَاصِ مِنِ الْأَنْسِ .
وَقَلْتَ: أَبْدَأْ لِي بِالشَّامِ وَمِصْرَ، وَفَضَلْتُ مَا بَيْنَهُمَا، وَتَحْصِيلِ جَمَاهِيمَا،
وَذَكَرْتَ أَنَّ ذَلِكَ سَيْجَرَ الْعَرَقِ وَالْجَهَازِ، وَالنَّجْوَدَ^(١) وَالْأَغْوَارِ، وَذَكَرَ
الْقُرَى وَالْأَمْصَارِ، وَالْبَرَارِي وَالْبَحَارِ^(٢)، إِنَّمَا أَنْتَ تَعْلَمُ
وَاعْلَمُ - أَبْقَالَ اللَّهُ - أَنَّمَا قَدَّمْنَا ذَكْرَ الْمُؤْخَرِ وَأَنْفَرْنَا ذَكْرَ الْمُقْدَمِ،
فَسَدَ النَّظَامَ وَذَهَبَتِ الْمَرَاتِبُ، وَلَسْتُ أَرِي أَنَّ أَقْدَمَ شَيْئاً مِنْ ذَكْرِ الْقُرَى
عَلَى ذَكْرِ أَمْ تَعْلَمُ بِجَمِيعِ الْقُرَى، وَأَوَّلَ الْأَمْورِ بِنَا ذَكْرُ خَصَالِ مَكَّةَ، ثُمَّ خَصَالِ
الْمَدِينَةِ .

ولو لا مَا يَحْبُّ مِنْ تَقْدِيمِ مَاقْدُومِ اللَّهِ وَتَأْخِيرِ مَا أَخْرَى لِكَانَ، الْفَالِبُ عَلَى
النُّفُوسِ ذَكْرَ الْأَوْطَانِ وَمَوْقِعَهَا مِنْ قَلْبِ الْأَنْسَانِ .

وَقَدْ قَالَ الْأَوَّلُ^(٣): «عَمْرُ اللَّهُ الْبَلْدَانِ بِحُبِّ الْأَوْطَانِ»، وَقَالَ ابْنُ
الْبَيْرِ: «لِيَسَ النَّاسُ بِشَيْءٍ مِنْ أَقْسَامِهِمْ أَقْتَنَعُ مِنْهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ»^(٤) .

[أَوْلَادُ الْمَامِنَ اللَّهِ عَلَى كُلِّ جَيلٍ مِنْهُمْ مِنَ التَّرَغِيبِ] فِي كُلِّ مَا تَحْتَ
أَيْدِيهِمْ، وَتَزَيَّنُ كُلِّ مَا اشْتَقَلَتْ عَلَيْهِ قَدْرُهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ مَفْوِضًا
إِلَى الْعُقُولِ، وَإِلَى الْخَيَاراتِ النُّفُوسِ - مَاسِكُنُ أَهْلِ الْغِيَاضِ وَالْأَدْعَالِ
فِي الْغَنَقِ وَاللَّثَقِ^(٥)، وَلَمَّا سَكَنُوا مَعَ الْبَعْوَضِ وَالْمَمْجَعِ^(٦)، وَلَمَّا سَكَنَ سُكَّانِ

الْقِلَاعِ^(٧) فِي قَلْلِ الْجَبَلِ، وَلَا أَقْدَمَ أَصْحَابُ الْبَرَارِي مَعَ الدَّنَابِ وَالْأَفَاعِيِّ
وَحِيتَّنِي مِنْ عَرَّبِ بَزَّ، وَلَا أَقْدَمَ أَهْلُ الْأَطْرَافِ فِي الْمَخَاوِفِ وَالْتَّغْرِيرِ^(٨)،
وَلَا رَضِيَ أَهْلُ الْغَيْرَانِ وَبَطَوْنُ الْأَوْدَةِ^(٩) بِعَلَكِ السَّاكِنِ، وَلَا لَحْسَ^(١٠)
الْجَمِيعِ السُّكْنَى فِي الْوَاسِطَةِ، وَفِي بَيْضَةِ الْعَرَبِ^(١١)، وَفِي دَارِ الْأَمْنِ
وَالْمَنَعَةِ . وَكَذَلِكَ كَانَتْ تَكُونُ أَحْوَالُمْ فِي اخْتِيَارِ الْمَكَابِسِ وَالصُّنَاعَاتِ
وَفِي اخْتِيَارِ الْأَسْمَاءِ وَالشَّهَوَاتِ . وَلَا اخْتَارُوا^(١٢) الْخَطِيرَ عَلَى الْجَعِيرِ،
وَالْكَبِيرَ عَلَى الصَّغِيرِ .

أَلَا تَرَاهُمْ قَدْ اخْتَارُوا مَا هُوَ أَقْبَحُ عَلَى مَا هُوَ أَحْسَنُ مِنِ الْأَسْمَاءِ وَالصُّنَاعَاتِ،
وَمِنِ الْمَنَازِلِ وَالْبَيْارَاتِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا خَدِيعُوا أَوْ اسْتَكْرُهُوا .
وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى اخْتِيَارِ مَا هُوَ أَرْفَعُ، وَرُفِضُوا مَا هُوَ أَوْضَعُ مِنِ الْمُنْهَمِ
أَوْ كُنْيَةِ، وَفِي تِجَارَةِ وَصَنْاعَةِ، وَمِنْ شَهْوَةِ وَهَمَةِ، لِذَهَبِتِ الْمَعَالَاتِ،
وَبَطَّلَ التَّمْيِيزُ، وَلَوْقَعَ التَّجَاذُبُ^(١) وَالتَّغَالِبُ^(٢)، ثُمَّ التَّجَارُبُ، وَلَيَسَارُوا
غَرَضاً لِلتَّفَانِي، وَأَكْلَةً لِلْبَوَارِ^(٣) .
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَكْثَرَ الْحَمْدِ وَأَطْبَيْهِ عَلَى نَعْدِهِ، مَاظَهُرُهُ مِنْهَا وَمَا يَبْطَئُهُ،
وَمَا جَهَلَ مِنْهَا وَمَا عَلِمَ^(٤) .

(١) بِ: «سَكَاكِ». صَوَابُهُ فِي مِنْ، وَفِي النَّسْخَيْنِ بَعْدَ: «الْفَلَاجِ»، صَوَابُهُ مَا أَبْتَأَتْ،
وَالْقِلَاعُ: جَمْعُ قَلَعَةٍ، وَهِيَ الْحَصْنُ فِي الْجَبَلِ .

(٢) بِ: «وَالْتَّغَرِيرِ»، صَوَابُهُ بِالْأَرَادِ الْمَهْمَلَةِ . غَرُورٌ يَنْفَسُهُ تَغْرِيرٌ : عَرْضَهَا الْمَلَكَةِ .

(٣) فِي النَّسْخَيْنِ: «وَلَا الْقَنِ»، صَوَابُ رَسْمِهِ مَا أَبْتَأَتْ، إِذْنِ الْأَمْوَالِ
وَلَيَسْتُ «لَا» التَّائِفَةِ .

(٤) بَيْضَةُ الْعَرَبِ: مَوْضِعُ سُلْطَانِهِمْ وَمَجِسِّهِمْ .

(٥) فِي النَّسْخَيْنِ: «وَلَا اخْتَارُوا»، وَانْتَرِ التَّبَيِّنِ السَّابِقِ .

(٦) فِي النَّسْخَيْنِ: «الْجَازَابُ» صَوَابُهُ بِالْأَذَالِ، وَالْجَاذِبُ: «الْتَّاجَابُ»، سَمَاعَةُهُ فِي
الْجَذَابِ .

(٧) بِ: «ثُمَّ التَّغَالِبُ» .

(٨) الْبَوَارِ: الْمَلَكَةِ، وَالْأَكْلَةِ، بِالْقَمْ وَالْفَتْحِ: الْمَأْكُولِ .

(٩) بِ: «الْأَرْتَرِ تَلِبُّ بِهِ سَوَابِهِ فِي بَيْضَةِ الْعَرَبِ»، وَتَعْلِيَةُهُ مِنْهُ .

(١٠) بِ: «الْمَقْنَقَلَةُ بِالْمَغْرِبِ لِكَسِّا، الَّتِي يَوْزِعُهُ ثَلَاثَةَ وَسَاحِمَةَ»، تَرَأَضُنْ هَمَقَةَ: قَسَدَ رَيْبِهَا

وَلَيَسْمُ منْ أَكْثَرِهِ الْأَنْدَادِ الْمُصَلَّرَاتِ مَوْبِيَّهُ وَفِي النَّسْخَيْنِ: «الْمَلْمَقِ»، الْمُصَلَّاهُ بِالْعَيْنِ الْمَجْمَعِ:

(١١) الْمَجْمَعُ: الْمَدِي وَالْمَحْرُ، وَيَقَالُ لَهُمْ وَالظَّيْنِ لَهُنْ أَيْضًا .

(١٢) الْمَجْمَعُ: ذِيَابٌ صَغِيرٌ كَالْبَعُوضِ، يَسْقُطُ عَلَى وَجْهِهِ الْمَمْ وَالْمَحْمِيِّ .

لذا ذكر الله تعالى الديار فيخبر عن موقعها من قلوب عباده، فقال:

﴿وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ أَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ . فسوى بين موقع قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم ، وقال : ﴿وَمَلَّنَا أَلَا نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ . فسوى بين موقع الخروج من ديارهم وبين موقع هلاك أبنائهم .

٢- فصل منه

فقسم الله تعالى المصالح بين المقام والطعن ، وبين الغربة والنفس الوطن ، وبين ما هو أربع وأربع ، حين يجعل مجرى الأرزاق مع الحركة والطلب ، وأكثر ذلك (٤) ما كان مع طول الاغتراب ، والبعد في المسافة ، اليقينيك الأمور ، فيمكن الاختيار (٥) ويحسن الاختيار .

والعقل المولود متأهي الحلود ، وعقل التجارب لا يوقف منه على حد . ألا ترى أن الله لم يجعل للف الوطن عليهم مفترضاً (٦) ، وقيداً مصيّتاً ، ولم يجعل كفایاتهم مقصورة عليهم ، فتحبسهم لهم في أوطانهم ؟ ألا تراه يقول : ﴿فَاقْرُبُوا مَاتَيسْرٍ مِّنَ الْقُرْآنِ ، عَلَمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضٌ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ . فقسم الحاجات يجعل أكثرها في البعد . وقال عز ذكره : ﴿فَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةَ فَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ

(١) الآية ٦٦ من النساء

(٢) الآية ٢٤٦ من البقرة

(٣) في النسختين : «أَنْذَكْر» ، والوجه ما ثبت

(٤) م : «الاختيار» بالباء المتناء من أسلف

(٥) م : «مترضاً» ، والتوصي : الحكم القائم ، كما يتوصى العقد والميزان ونحوها .

(٦) الآية ٢٠ من سورة المزمل .



فضل الله (١) فأنخرج الكلام والاطلاق على تخرج العلم «فلم يحصل أرضًا دون أرض ، ولا قربًا دون بُعد» .

٣- فصل منه

ونحن ، وإن أطينا في ذكر حملة القول في الوطن ، وما يعمل في الطبائع ، فإنما لم نذكر خصال بلدة يعينها ، فنكون قد خالفنا إلى تقديم المؤخر وتأخير المقدم .

قالوا : ولم نجهل ولم ننكر (٢) أن نفس الالف تكون (٣) من صلاح الطبيعة ، حتى إن أصحاب الكلام (٤) ليجعلون هذا من مفاخرها على جميع ما يعيش الناس في دورهم من أصناف الطير وذوات الأربع : وذلك أن صاحب المنزل إذا هجم منزله (٥) واختار غيره ، لم يتسعه فرجه ولا بغل ولا حمار ، ولا ديك ولا دجاجة ، ولا حمام ولا حمام ، ولا هر ولا هرة ، ولا شاة ، ولا عصافير ، فإن العصافير تالف دور الناس ، ولا تكاد تقيم فيها إذا خرجوا منها ، والخطاطيف تقطع لهم لتقيم فيها إلى أوان حاجتها إلى الرجوع إلى أوطانها ، وليس شيء من هذه الأنواع مما تبوا في الدور باختلافهم لها ، ولا ماتبوا في دورهم مما ينزلع إليهم أحى من الكلب ، فإنه يؤثره على وطنه ، ويحبه من يشاه

(١) الآية ١٠ من سورة الجمعة . وفي النسختين : «فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ » تعرّيف قرآن

(٢) في النسختين : «أَنْذَكْر» ، والوجه ما ثبت

(٣) في النسختين : « تكون» .

(٤) في النسختين : «الكلاب» ، والوجه ما ثبت

(٥) هم منزله هجا : هده . وهنم البيت ، إذا قرر ، ومنه قول علقمة : «إِنَّ

صلع كان جنابه وجليقه ، بيت أهالك به بحر قار مجروم (٦)

(٦) الآية ٢٠ من سورة المزمل .

(٧) رسائل الماجستير - ج ٤

فذكروا الكلبَ بهذا الخلُق الذي تفرد به دونَ جميعِ الحيوان .
وقالوا في وجه آخر : أكرم الصُّفَّاها أشدهَا ولها إلى أولادها^(١) ،
وأكرم الإبل أحنها إلى أعطانها^(٢) ، وأكرم الأفلاء^(٣) أشدُّها ملزمة
لأمها ، وخير الناسَ أفقُهم للناس .

٤ - فصل منه

وقلم : خبرُونا عن الخصال التي بانت بها قريش عن جميع الناس .
وأنا أعلم أنك لم تُرَدْ هذا ، وإنما أردتَ الخصال التي بانت بها قريش
من سائر العرب ، كما ذكرنا في الكتاب الأول الخصال التي بانت بها
العرب عن العجم ، لأنَّ قريشاً والعرب قد يُستَوِّون في مناقبَ كثيرة . قد
يُلقى في العرب الجوادُ المُبِير^(٤) وكذلك الحليم والشجاع ، حتى يأتي
على خصالٍ حميدة ؛ ولكننا نريد الخصالَ التي في قريش دون العرب .

فمن ذلك أنا لمن قريشياً انتسب إلى قبيلة من قبائل العرب ، وقد
رأينا في قبائل العرب^(٥) الأشرفِ رجالاً - إلى الساعة - يتنسبون في
قريش ، كتحو الذي وجدنا في بني مُرَّة بن عوف ، والذي وجدنا من
ذلك في بني سُلَيم ، وفي خزاعة ، وفي قبائل شريفة .

(١) الصُّفَّاها : جمع صنفية ، وهي الناقة والثاة التزيرة للبن .

(٢) العطن للإبل كالعلن للناس . وقد غالب على ميراثها حول المرض . بـ : « أعطانها » ،
صوابه في م .(٣) الأفلاء : جمع فلو بالكسر ، أو فلو كعبو ، أو فلو بضمين مع التشديد ، وهو
المهر الذي لم يرض ، أو الذي يبغى اللسنة .(٤) المبر : الثالب . وفي اللسان (بر ١١٩) : « وسئل رجل من بيأسد : أترى
الفرسَ الْكَرِيم ؟ قال : أعرَفَ الجوادَ المبرَّ من البطيءِ المقرف ». بـ : « الميرن » م : « المبرن »
والوجه ما أثبت .

(٥) بـ : « كبار العرب » ، صوابه في م .

وممَّا بانت قريش أنَّها لم تلدُ في الجاهلية ولدًا قطًّا [لغيرها^(١)]
ولقد أخذ ذلك منهم سُكَّانُ الطائف ، لثُربِ الْجِوار وبَعْضِ المصاهرة ،
ولأنَّهم كانوا حُنَّاساً ، وقُريش حُمَّاسٌ .
وممَّا بانت^(٢) به قريش من سائر العرب أنَّ الله تعالى جاءَ بالإسلام
وليس في أيدي جميعِ العرب سُبْيَة^(٣) من جميعِ نساءِ قريش ، ولا وجَدوا
في جميعِ أيديِّ العرب ولدًا من امرأةٍ من قريش .
وممَّا بانت^(٤) به قريش من سائر العرب أنَّها لم تكن تزوج أحدًا
من أشرافِ العرب إلاً على أنْ يتحمَّس ، وكانوا يُزوِّجون من غيرِ أنْ
يُشترطَ عليهم ، وهى عامرَ بنِ صعصعة ، وثقيف ، وخزاعة ، والحارث
ابن كعب ، وكانوا دِيَانِيَّين^(٥) ، ولذلك تركوا الغزوَ لما فيه من الغصب
والغشم^(٦) ، واستحلال الأموال والفروج .
ومن العجب أنَّهم مع تركِهم الغزوَ كانوا أعزَّ وأمثلَ ، مثلَ أيامِ
الْفِيَّار^(٧) وذاتِ كَهْفٍ^(٨) .

(١) بها أو بنحوها يصح الكلام . وانظر ما ساق في نهاية الفقرة الثالثة .

(٢) في النسختين : « وما بانت » ، والوجه ما أثبت .

(٣) السُّبْيَة : المسبيَة التي لحقها السباء ، وهو الأسر والتبع . بـ : « سُبْيَة » م : « سُلَيْمة » ،
صوابها ما أثبت . (٤) في النسختين : « وما بانت » ، تحرير .
(٥) نسبة إلى الديانة . وفي النسختين : « دِيَانِيَّين » . والديان : المأكم والقاضي ،
والوجه له هنا . وانظر الميزان ١٩٧ : ٤ .

(٦) في النسختين : « النَّفَقَ » بالضادِ المجهلة ، صوابها ما أثبت .

(٧) الشِّمْ : الظل . بـ : « الشِّمْ » م : « الشِّمْ » صوابهما بالدين المجهلة .

(٨) أيامِ القبار ، بكسرِ القاء : حروب أربعة كانت أولًاها وثالثتها بين كنانة
وهوازن وثانية بين قريش وهوازن ورابعها بين قريش وكنانة كلها وبين هوازن . وكانت كلها
قبل البيعة بست وعشرين سنة . وانظر المتن ٢٥٧-٢٥١ . بـ : « مثل أيامِ الفخار » م :(٩) ذاتِ كَهْفٍ : موضعٌ كاتنٌ فيه وقتة لم . وفيه يقول بشر بن أبي خازم الأسدى :
يرمون الصلاح بذاتِ كَهْفٍ . وما فيها لم سلح وقار

(١٠) الصلاح ، بالكسر : الصلاح . وانظر المفصلات ٣٤١ .



إِلَى رُدْحٍ مِنَ الشَّيْزِيِّ مِلَاءُ لُبَابَ الْبُرِّ يُلْبِكَ بِالشَّهَادِ^(١)
 فَلُبَابَ الْبُرِّ هُوَ هَذَا النَّشَاءُ ، وَالشَّهَادُ يَعْنِي بِهِ الْعَسْلُ .
 أَلَا تَرَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابَ يَقُولُ : « أَتَرَوْنِي لَا أَعْرِفُ طَيْبَ الطَّعَامِ ؟
 لُبَابَ الْبُرِّ بِصَغَارِ الْمَعْزَى » ، يَعْنِي خُبْزَ الْمُوَارَى بِصَغَارِ الْجَدَاءِ^(٢) .
 وَلَقَدْ مَدْحُثُهُمُ الشُّعُراُءُ كَمَا يُمْدِحُ الْمُلُوكَ ، وَمَدْحُثُهُمُ الْفَرَسَانُ وَالْأَشْرَافُ
 وَأَخْدُنُوا جَوَازِرُهُمْ ؟ مِنْهُمْ : دَرِيدُ بْنُ الصَّمَّةَ ، وَأُمَّيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلَتِ .
 وَمِنْ خَصَالِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُشارِكُوا الْعَرَبَ وَالْأَعْرَابَ فِي شَيْءٍ مِنْ جَفَائِهِمْ ،
 وَغَلَظَ شَهْوَاتِهِمْ ؛ وَكَانُوا لَا يَأْكُلُونَ الصَّبَابَ ، وَلَا شَيْئاً مِنَ الْحَشَراتِ ؛
 أَلَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَتَوْنَا بِخَوَاهَ بِضَبْبٍ فَقَالَ :
 « لَيْسَ مِنْ طَعَامٍ قَوْمِيٍّ » ، لَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَهْرِسُونَ الصَّبَابَ^(٣) ، وَيَصِيدُونَ
 الْبِرَّاَبِعَ ، وَيَمْلُؤُونَ الْقَنَافِذَ^(٤) ، أَصْحَابُ الْحَمْرَ وَالْخَمْرِ ، وَخُبْزُ الْتَّنَانِيرِ ،
 وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبَ بِيَدِي
 أَنَّى مِنْ قَرِيزِيِّ ، وَنَشَأْتُ فِي بْنِ سَعْدَ بْنِ بَكْرٍ » .
 وَذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ قَبَائلِ الْعَرَبِ إِنَّمَا كَانَتِ الْقَبْيلَةُ لَأَنَّكَادَ تَرَى

(١) رُدْحٌ ، أَيْ قِصَاعٌ عَظِيمٌ ، الْوَاحِدَةُ وَدَاحُ كَسْحَابٍ . وَفِي النَّسْخَيْنِ : « رُوحٌ »
 تَخْرِيفٌ . وَالشَّيْزِيُّ : خَبْثٌ أَسْوَدٌ تَعْذَذُ مِنَ الْقِصَاعِ . يُلْبِكَ : يَخْلُطُ . وَالشَّهَادُ : جَعْ رَثَيْدَهُ
 بِالْفَحْجَ وَالْفَمِ ، وَهُوَ الْعَسْلُ مَادَمَ لَمْ يَعْصُرْ مِنْ شَعْمِهِ .
 (٢) الْمُوَارِى ، بِضمِ الْمُوا ، وَتَشْدِيدِ الْوَارِ ، مَقْصُورٌ : الْدِقْيَ الْأَبِيسُ ، وَهُوَ لُبَابُ الْجَدَاءِ
 وَأَجْوَدُهُ وَأَخْلَصُهُ . وَالْجَدَاءُ : جَعْ جَدِيٍّ ، كَمَا يَجْمِعُ أَيْضًا عَلَى أَجْدَ وَجْدَيَانِ . وَفِي النَّسْخَيْنِ بِفِي
 « أَجْدَى » ، تَخْرِيفٌ .
 (٣) حَرْشُ الصَّبَبِ يَحْرِشُهُ ، بِالْكَسْرِ ، حَرْشًا : صَادَهُ ، كَاجْتَرَهُ . وَذَلِكَ بِأَنَّ
 يَحْرِشُ يَدَهُ عَلَى بَابِ جَمِيرَهِ لِيَظْهِرَ حَيَّةً ، فَيُخْرِجُ ذَلِكَهُ لِيَضْرِبَهَا فِيَخْدَهِ .
 (٤) يَمْلُونَهُ : يَحْمَلُونَهُ فِي الْمَلَةِ ، وَهُوَ الرَّمَادُ الْحَارُ وَالْجَمْرُ ، يَشْتَرِئُهُ لِيُرْكَلُ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ عِنْدَ بُنْيَانِ الْكَعْبَةِ قَالَ رَؤْسَاؤُهُمْ : لَا تَخْرُجُوا فِي
 نَفَقَاتِكُمْ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ إِلَّا مِنْ صَدَقَاتِ نَسَائِكُمْ^(١) ، وَمَوَارِيثُ أَبَائِكُمْ !
 أَرَادُوا مَا لَمْ يَكْسِبُوهُ وَلَا يَشْكُونُ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْهُ مِنَ الْحَرَامِ شَيْءٌ .

وَمِنَ الْعَجْبِ أَنَّ كَسْبَهُمْ لَمَّا قَلَّ مِنْ قَبْلِ تَرْكِهِمُ الْغَزْوُ ، وَمَالُوا إِلَى
 الْإِلَافِ وَالْجِهَادِ ، لَمْ يَعْتَرُهُمْ مِنْ بُعْدِ الشَّجَارِ قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ ، وَالْبَخْلُ
 خِلْقَةٌ فِي الْطَّبَاعِ ، فَأَعْطُوْهُمُ الشُّعَرَاءَ كَمَا يُعْطِي الْمُلُوكَ ، وَقَرَوْهُمُ الْأَضِيافَ ،
 وَوَصَلُوا الْأَرْحَامَ ، وَقَامُوا بِنَوَافِيْبِ زُوَّارِ الْبَيْتِ ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ يَجْيِسُ
 الْجَيْسَةَ فِي الْأَنْطَاعِ^(٢) فِيْكُلُّ مِنْهَا الْقَانِمُ وَالْقَاعِدُ ، وَالرَّاجِلُ وَالرَّاكِبُ^(٣)
 وَأَطْعَمُوا بَدْلَ الْجَيْسِ الْفَالَوْذَجَ^(٤) . أَلَا تَرَى أُمَّيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلَتِ يَقُولُ ،
 وَيَذْكُرُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَذْعَانَ^(٥) :

لَهُ دَاعٌ بِعَكَّةَ مَشْعَلٍ وَحْفَصٌ فَوْقَ دَارِتِهِ يَنَادِي^(٦)

(١) الصَّدَقَاتُ : الْمُهُورُ ، وَهِيَ بِضمِ الدَّالِ وَفَتحِهِمْ فَتحُ الصَّادِ ، وَمِثْلُهَا الصَّدَقَةُ بِضمِ الصَّادِ
 وَبِضمِيْنِ ، وَكَذَلِكَ الصَّدَقَاتُ كَسْحَابٌ وَكِتَابٌ . وَفِي الْكِتابِ الْمَرِيزِ : « وَأَتَوْنَا النَّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ
 نَحْلَةً » ، لَمْ تَقْرَأْ فِي الْقِرَاءَاتِ الْأَرْبَعِ عَشَرَةً لَا يَفْتَحُ الصَّادُ وَضِمُ الدَّالِ . وَانْظُرْ تَفْسِيرَ أَبِي حَيَانَ
 ٣ : ١٦٦ وَالْإِتْحَافَ ١٨٦ .

(٢) الْجَيْسُ : طَعَامٌ يَعْتَدُ مِنَ الْمُرِّ وَالْأَقْطَعِ يَدْقَانُ ثُمَّ يَمْجَنَّانُ بِالسَّمِنِ عَجَنَا شَدِيدَاً حَتَّى
 يَنْدَرُ الْوَرَى مِنْهُ نَوَّةٌ نَوَّةٌ ثُمَّ يَسْوِي كَالْثَرِيدَ . وَالْطَّعَمُ بِتَكْلِيفِ الْتَّوْنِ : بِسَاطٌ مِنَ الْمَلَدِ .

(٣) الرَّاجِلُ : مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلِيهِ ، مَقْابِلُ الرَّاكِبِ . وَفِي التَّسْخِينِ : « الدَّاخِلُ » ،
 صَوَابَهُ مَا أَثْبَتَ .

(٤) الْفَالَوْذَجُ وَالْفَالَوْذَجُ : طَعَامٌ يَتَخَذُ مِنَ الدِّقْيِ وَالْمَاءِ وَالْعَسْلِ ، مَعْرِبٌ . وَانْظُرْ صَنَةَ
 مِتَقْدِمَةَهُ فِي كِتابِ الطَّبِيبِ الْبَلْعَدَادِيِّ صِ ٧٦ .

(٥) جَذْعَانٌ بِضمِ الْجَمِيمِ ، كَمَا فِي الْقَامُوسِ (جَدَعٌ) . وَفِي النَّسْخَيْنِ : « جَذْعَانٌ » تَصْحِيفُ.

وَعَبْدُ اللَّهِ هَذَا جَوَادٌ مَرْوُفٌ بِمَا تَقْبَلَ إِلَيْهِ إِسْلَامٌ ، وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَذْعَانَ بْنُ عَمْرُو بْنُ كَبِيرٍ
 أَبْنَ سَعْدَ بْنَ قَيْمَ بْنَ مَرْيَةَ . وَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « شَهِدْتُ مَأْدِيَةً فِي دَارِ أَبْنَ
 جَذْعَانَ » . وَفِي الْإِصَابَةِ ٤٥٧٨ أَنَّ الَّذِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ : « إِذَا اشْتَرَيْتُ نَعْلًا فَاسْتَجِدْهَا ،
 وَإِذَا اشْتَرَيْتُ دَابَةً فَاسْتَغْرِهَا ، وَإِذَا كَانَ عَنْدَكَ كَرْبَعَةً قَوْمًا فَأَكْرِمْهَا » . وَسَأَلَتْ عَائِشَةَ عَنْهُ
 رَسُولُ اللَّهِ وَذَكَرَتْ لَهُ مَا كَانَ لَهُ مِنَ الْجَنُودِ فَقَالَ : « إِنَّمَا يَقْلِبُ رَبُّ الْغَرَبَلِ خَطْبِيَّ يَوْمَ الدِّينِ » .
 وَانْظُرْ الْأَغْنَى ٨-٢٥ وَالْعَقْدَ ١: ٤٤/٢٣-٤٣ وَالْمَهْرَ لِابْنِ جَبِيبٍ ١٣٩-١٣٧ .

(٦) الْرَّوَايَةُ الْمُرْوُفَةُ : « أَنْتَ فَوْقَ دَارَتِهِ ». دِيْوَانُ أُمَّيَّةَ ٢٧ وَالْبَيَانُ ١٧ وَالْأَغْنَى ٣: ٨ .

وَتُسْمِعُ إِلَّا مِنْ قَبْلِهَا وَرَجُلَهَا ، فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ ، إِلَّا عِنْدَ قَبْلٍ وَاحِدٍ ، مِنَ الْبَيَانِ وَالْأَدْبِ وَالرَّأْيِ وَالْأَخْلَاقِ ، وَالشَّمَائِلِ ، وَالْمُلْحَمِ وَالنَّجْدَةِ وَالْمُرْفَقَةِ ، إِلَّا فِي الْفَرْطِ .

وَكَانَتِ الْعَرْبُ قَاطِنَةً تَرَدُّدُ مَكَّةَ فِي أَيَّامِ الْمُوْسَمِ ، وَتَرَدُّدُ أَسْوَاقَ عَكَاظِ وَذَا الْمَجَازِ ، وَتَقِيمُ هَنَاكَ الْأَيَّامُ الطَّوَالُ ، فَتَعْرُفُ قَرِيشَ^(١) ، لاجْتَمَاعِ الْأَخْلَاقِ لَهُمْ [وَ] الشَّمَائِلُ وَالْأَلْفَاظُ ، وَالْقُوَولُ وَالْأَحْلَامُ ، وَهِيَ وَادِعَةٌ^(٢) وَذَلِكَ قَالَمُهَاجِرٌ لَهُ ، رَاهَنْ عِنْدَهَا فِي كُلِّ عَامٍ ، تَتَمَلَّكُ عَلَيْهِمْ^(٣) فَيَقْتَسِمُونَهُمْ ، فَتَكُونُ عَطْفَانَ لِلْمِيرَةِ^(٤) ، وَبَنُو عَامِرٍ لَكُذَا ، وَنِعْمَ لَكُذَا ، تَغْلِبُهَا النَّاسُكَ^(٥) وَتَقُومُ بِجَمِيعِ شَأْنِهَا .

٥ - فَصْلُهُنَّ

وَفَتْحُ مَكَّةَ يَسِّي فَتْحَ الْفَتوْحِ ، وَهُوَ بَيْتُ اللَّهِ ، وَأَهْلُهُ وَحْجَاجُهُ زُوْارُ اللَّهِ ، وَهُوَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ وَالْبَيْتُ الْحَرَامُ ، وَفِيهِ الْجِبْرِ ، وَالْحَجَرُ الْأَسْوَدُ .
وَلَهُ زَمْزُمُ ، وَهِيَ هَزْمَةُ جَبَرِيلٍ^(٦) - صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - ، وَمَقَامُ إِبْرَاهِيمَ . وَمَاهُ زَمْزُمُ لِمَا شَرِبَ لَهُ ، الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي سَوَاءٌ^(٧) .

(١) عَرَفَ يَعْرَفُ عَرَافَةً : صَارَ عَرِينَا ، أَى سِيَّداً .

(٢) بِ : « وَدَاعَةٌ » ، صَوَابَهُ فِي شِ .

(٣) فِي النَّسْخَتَيْنِ : « يَعْتَلُكُ عَلَيْهِمْ » .

(٤) الْمِيرَةُ : الْطَّعَامُ يَمْتَاهِنُهُ الرَّوَاءُ ، أَى يَجْلِبُهُ . وَفِي النَّسْخَتَيْنِ : « لِلْمِيرَةِ » ، تَحْرِيفٌ .

(٥) لَعْلَهَا : « وَتَنَلِبُ لِلنَّاسُكَ » .

(٦) مِنْ أَسْمَاءِ زَمْزُمْ « هَزْمَةُ جَبَرِيلٍ » لَأَنَّهُ شَرِبَ بِرْجَلِهِ فَلَخَفَضَ المَكَانَ فَنَعَّمَ الْمَاءَ ، أَوَ أَنَّهُ هَزَمَ الْأَرْضَ ، أَى كَسَرَ وَجْهَهَا عَنْ عَيْنَاهَا حَتَّى فَاضَتِ الْمَاءُ الرَّوَاءُ . وَتَسِي زَمْزُمَ اِيْشَأَ : « رَكْفَةُ جَبَرِيلٍ » ، وَفِي بِ : « وَهُوَ زَمْزُمَةُ جَبَرِيلٍ » وَفِي بِ : « وَهُوَ زَمْزُمُ جَبَرِيلٍ » ، صَوَابَهَا مَا أَثَبَتَ .

(٧) الْبَادِيَ الْمَقِيمُ بِالْبَادِيَةِ . بِ : « وَالْبَادِي » ، وَهِيَ لَذَةُ صَحِيفَةٍ جَازِيَةٍ قَرَأَهَا بَجْرَةُ الْقَرَاءَ فِي الْوَقْتِ وَالْوَصْلِ ، وَأَثَبَتَ الْيَاءُ فِي الْوَصْلِ نَفْقَهَ وَرِيشَ وَأَبُو عَرْوَةَ وَأَبُو جَمْعَرَ . أَمَا يَقُوبَ وَابْنَ كَبِيرَ فَنَدَأَثَبَتَ الْيَاءُ فِي الْمَالِيْنِ جَيْمَاً . إِتْحَافُ فَضَلَّهُ الْبَشَرُ^(٨) فِي الْآيَةِ ٢١ فِي الْآيَةِ ٢٥ مِنْ سُورَةِ الْجَعْجَعِ .

وَيَسِبِّبُ كَرَامَتَهُ أَرْسَلَ اللَّهُ طَيْرَ الْأَبَابِيلَ^(١) . وَحِجَارَةُ السُّجَيْلِ . وَأَهْلُهُ حُنْسُ وَلَقَاحٌ^(٢) لَا يُؤْدُونَ إِنْتَوَاهَ ، وَلَمَ السَّقَيَةُ ، وَدارُ النَّدْوَةَ ، وَالرَّفَادَةُ ، وَالسُّدَانَةُ .

قال : وَأَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا ، قَالَ : « لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ^(٣) ». وَقُولُهُ جَلَ ذَكْرُهُ : (لَا أَقْسِمُ) أَى : أَقْسَمَ ، وَإِنَّمَا قُولُهُ « لَا » فِي هَذَا الْمَوْضِعِ صَلَةٌ ، لَيْسَ عَلَى مَعْنَى « لَا » الَّذِي هُوَ خَلَافٌ « نَعَمٌ » .

وَقَالُوا : وَلَوْ كَانَ قُولُهُ : « وَلَيُطْفُوُفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ^(٤) » بِرَادِهِ تَقَادُّمُ الْبَيْنَانِ ، وَمَا تَعَاوَرَهُ^(٥) مِنْ كُوُرُورِ الزَّمَانِ ، لَمْ يَكُنْ فَضْلُهُ عَلَى سَائِرِ الْبَلْدَانِ ، لَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَخْلُ مِنْ بَيْتٍ وَدَارٍ ، وَسُكَّانٍ وَبَيْنَانٍ . وَقَدْ مَرَّتِ الْأَيَّامُ عَلَى مِصْرَ ، وَجَرَانَ ، وَالْجِيرَةَ ، وَالسُّوسُ الْأَقْصِيِّ^(٦) ، وَأَشْبَأَ دُرْكَ الْأَيَّامِ عَلَى مَصْرَ ، وَجَرَانَ ، وَالْجِيرَةَ ، وَالسُّوسُ الْأَقْصِيِّ^(٧) ، كَانَ ذَهْبُ إِلَيْهِ مَا يَعْنُونَ ، كَانَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَعْتَقُّ وَتَغُرُّ عَلَيْهِ الْأَزْمَنَةِ لَيْسَ بِعَتِيقٍ . وَهَذَا الْاِسْمُ قَدْ أُطْلِقَ لَهُ إِطْلَاقًا ، فَاسْمُهُ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ ، كَمَا أَنَّ اسْمَهُ بَيْتُ اللَّهِ .

وَمِنْ زَعْمِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَمَهُ يَوْمُ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَقُولُنَا هَذَا يَصَادِقُ لَهُ^(٨) .

(١) هَذَا مَا فِي مِنْ . وَالْأَبَابِيلُ : الْمَيَاعَاتُ . وَفِي بِ : « طَيْرُ الْأَبَابِيلِ » .

(٢) حُنْسٌ : بَعْ جَعْ أَحْسَنُ ، وَهُوَ الشَّدِيدُ الصَّلْبُ فِي الدِّينِ وَالْقِتَالِ . وَيَقَالُ قَوْمُ لَقَاحٍ بِفتحِ الْأَلْمَ ، وَسُنِي لَقَاحٍ : لَمْ يَدِيَرُوا الْمُلُوكَ وَلَمْ يَلْكُرُوا وَلَمْ يَصْبِهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ سَيِّئَةً . وَفِي النَّسْخَتَيْنِ : « لَقَاحٌ » بِالْفَاءَ ، صَوَابَهُ فِي مِنْ .

(٣) الْآيَةِ ١ ، ٢ مِنْ سُورَةِ الْبَلَدِ .

(٤) الْآيَةِ ٢٩ مِنْ سُورَةِ الْجَعْجَعِ .

(٥) تَعَاوَرَهُ : تَدَارَوْلَهُ عَلَيْهِ وَتَمَاقِبَ . وَفِي بِ : « تَعَاوَرَهُ » بِالْدَالِ ، صَوَابَهُ فِي مِنْ .

(٦) السُّوسُ الْأَقْصِيُّ : كُورَةُ الْمَلْرَبِ ، قَصْبَتِهَا طَرْقَةٌ . وَأَمَّا السُّوسُ الْأَدْلَفُ فَهُوَ بَلْدَةُ بَخْرُوْسَتَانَ . وَبَيْنَ السُّوسَيْنِ مَسِيرَةُ شَهْرَيْنِ ، كَمَا ذَكَرَ يَاقُوتَ .

(٧) بِ : « مَصَدِّقٌ » وَمَعْ سَقْوَطِهِ لَهُ .

ومن رُّعِيَ أَنَّهُ إِنْمَا صَارَ حَرَامًا مِّنْ حِرْمَةِ إِبْرَاهِيمَ، كَانَ قَدْ زُعمَ أَنَّهُ
قَدْ كَانَ وَلَا يُقَالُ لَهُ عَتِيقٌ وَلَا حَرَامٌ.

قالوا : وَمَا يَصِدِّقُ تَأْوِيلَنَا أَنَّهُ لَمْ يُعْرَفْ إِلَّا وَهُوَ لَقَاحٌ^(١)، وَلَا أَدَى
أَهْلَهُ إِثْنَاوَةً قُطُّ^(٢)، وَلَا وَطَشَّتِهِ الْمُلُوكُ بِالْتَّسْلِيمِكَ : أَنَّ سَابُورَذَا الْأَكْتَافِ ،
وَبَحْثَتْ نَصْرَ وَأَبَا يَكْسُونَ وَغَيْرَهُمْ، قَدْ أَرَادُوهُ^(٣) فَحَالَ اللَّهُ تَعَالَى دُونَهُ ،
فَتَلَكَ عَادَةً فِيهِ ، وَسَنَةً جَارِيَةً لَهُ .

ولَوْلَا أَنْ تُبَعِّدَ أَنَّهَا حَاجَةً ، عَلَى جَهَةِ التَّعْظِيمِ وَالتَّدْبِيرِ بِالطَّوَافِ ،
فَحَجَّهُ وَطَافَ بِهِ ، وَكَسَاهُ الْوَصَائِلَ^(٤) ، لِأَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْهُ .
وَحَجَّهُ بَعْضُ مُلُوكِ غَسَانٍ وَلَخْمٍ ، وَهُمْ نَصَارَى ، تَعْظِيمًا لَهُ ، وَلِمَا
جَعَلَ اللَّهُ لَهُ فِي الْقُلُوبِ .

وَالْعَتِيقُ يَكُونُ مِنْ رُقِّ الْعَبُودِيَّةِ ، كَالْعَبْدِ يَعْتَقِهِ مُوَلَّاهُ . وَيَكُونُ
عَتِيقًا مِنَ النَّارِ ، كَالثَّابِتِ مِنَ الْكَبَائِرِ ، وَكَالرَّجُلِ يَدْعُو إِلَى الإِيمَانِ
فَيُسْتَجَابُ لَهُ ، وَيَتَعَلَّمُ^(٥) نَاسٌ عَلَى يَدِهِ ، فَهُمْ أَيْضًا عَتَقَاءُ^(٦) .
وَيَكُونُ الرَّجُلُ عَتِيقًا مِنْ عَنْقِ الْوَجْهِ .

وَرَبِّمَا كَانَ عَتِيقًا كَمَا يُقَالُ لِلْفَرْسِ عَتِيقٌ وَلَيْسَ بِهِجِينَ وَلَا مُقْرِفَ .
وَقَدْ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ - رَضِوانَ اللَّهُ عَلَيْهِ - عَتِيقًا ، مِنْ طَرِيقِ
عَنْقِ الْوَجْهِ ، وَمِنْ طَرِيقِ أَنَّهُمْ طَلَبُوا الْمَثَالِبَ وَالْعِيُوبَ الَّتِي كَانَتْ تَكُونُ

(١) انظر ماضى في ، المائة الثانية من ص ١١٩ .

(٢) فِي النَّسْخَتَيْنِ : « قَطْطٌ » .

(٣) فِي النَّسْخَتَيْنِ : « قَدْ أَرَادُوهُ » .

(٤) الْوَصَائِلُ : ثَيَابُ عِيَانِيَّةٍ ، وَقِيلَ ثَيَابُ حِرْمَةٍ مُخْطَطَةٍ بِيَانِيَّةً ، وَاحْدَتِهَا وَصِيلَةٌ .

(٥) فِي النَّسْخَتَيْنِ : « وَتَعْلِمُ » .

(٦) بِ : « نَهُوا أَيْضًا عَتَقَاءَ » مِنْ : « نَهُوا أَيْضًا عَتَقَاءَ » ، وَالْوَجْهِ مَا أَثَبَتَ .

فِي الْأَمَمَاتِ وَالآبَاءِ قَلَمَ يَجْدُوْهَا ، قَالُوا^(١) : مَا هَذَا إِلَّا عَتِيقٌ .
٦ - فَصَلَّى مِنْهُ

قَدْ قُلْنَا فِي الْخَصَالِ الَّتِي بَانَتْ بِهَا قَرْيَشُ دُونَ الْعَرَبِ . وَنَحْنُ ذَاكِرُونَ
- وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ - الْخَصَالُ الَّتِي بَانَتْ بِهَا بَنُو هَاشِمٍ دُونَ قَرْيَشٍ .
فَأَوْلُ ذَلِكَ النَّبُوَّةُ ، الَّتِي هِيَ جَمَاعُ خَصَالِ الْخَيْرِ^(٢) ، وَأَعْلَاهَا
وَأَفْضُلُهَا ، وَأَجْلُهَا وَأَسْنَاهَا .

ثُمَّ وَجَدْنَا فِيهِمْ ثَلَاثَةَ رِجَالٍ بَنِي أَعْمَامٍ فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ ، كُلُّهُمْ يَسْمَى
عَلَيْهَا ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْثَّلَاثَةِ سَيِّدٌ فَقِيهٌ ، عَالَمٌ عَابِدٌ ، يَصْلُحُ لِرِئَاسَةِ
وَالْإِمَامَةِ ؛ مِثْلُ عَلَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ ،
وَعَلَى بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ بْنِ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ ، وَعَلَى
ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ بْنِ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ .

ثُمَّ وَجَدْنَا ثَلَاثَةَ رِجَالٍ بَنِي أَعْمَامٍ ، فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ ، كُلُّهُمْ يَسْمَى
مُحَمَّدًا ، وَكُلُّهُمْ سَيِّدٌ وَفَقِيهٌ عَابِدٌ ، يَصْلُحُ لِرِئَاسَةِ وَالْإِمَامَةِ ، مِثْلُ مُحَمَّدٍ
ابْنِ عَلَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ ، وَمُحَمَّدٍ بْنِ
عَلَى بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ بْنِ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ ، وَمِثْلُ
مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ بْنِ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ .

وَهَذَا مِنْ أَغْرِبِ مَا يَتَهَمَّ^(٣) فِي الْعَالَمِ ، وَيَتَفَقَّدُ فِي الْأَزْمَنَةِ ، وَهَذِهِ
لَا يُشَرِّكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ ، وَلَا يُسْتَطِعُ أَنْ يَدْعُى مِثْلَهَا أَحَدٌ .

(١) بِ : « قَالَ » ، صَوَابَهُ فِي م .

(٢) فِي النَّسْخَتَيْنِ : « خَصَالُ جَمَاعِ الْخَيْرِ » ، وَالْوَجْهِ مَا أَثَبَتَ . وَجَاعَ الشَّوَّهُ بِالْكَرْسِ :
جَمِيعُهُ وَمَظْنَتِهِ . يَقَالُ : « الْخَيْرُ جَمَاعُ الْإِيمَانِ » . وَفِي قَوْلِ الْحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « اتَّقُوا
هَذِهِ الْأَهْوَاءِ الَّتِي جَاهَهَا الصَّلَاةُ وَمِيَادِهَا النَّارُ » . السَّانُ (جَمِيعَ ٤٠٥) .

(٣) فِي النَّسْخَتَيْنِ : « تَهَيَا » .

(٤) مِنْ : « وَهَذِهِ » ، صَوَابَهُ فِي ب .

ولبني هاشم واحدة^(١) مبرزة ، وثانية نادرة ، يتقىدون بها على جميع الناس . وذلك لأنّا لا نعرف في جميع مملكة العرب ، وفي جميع مملكة العجم ، وفي جميع الأقاليم السبعة ، ملكاً واحداً ملكه من نصاب واحد^(٢) ، وفي مغرس رسالة ، إلا من بنى هاشم ، فإنّ ملكهم العباس ابن عبد المطلب ، عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، والعم وارث ، والعم أب . ولا نعلم أمة تدعى مثل هذا ملوكها .

وهذا شيء سمعته من أبي عبيدة ، ومنه استambilت هذا المعنى . ولبني هاشم - مُدْ ملوكوا هذه الدفعة - دون أيام على بن أبي طالب والحسين بن علي إلى يومنا هذا مائة وست عشرة سنة^(٣) . كان أول برؤسهم أنز الله - تعالى - رفع الطواعين والموتان الجارف ، فإنّهم كانوا يحصلون حصداً بعد حصد .

ثم الذي تهياً واتفق ، وخص به آل أبي طالب من الغرائب والعجبات والفضائل ، مالم نجده في أحد شواهم : وذلك أنَّ أول هاشمي هاشمي الأبوين كان في الدنيا ولد لابي طالب ، لأنَّ آباهم عبد مناف . وهو أبو طالب بين شيبة - وهو عبد المطلب - بن هاشم - وهو عمرو - وهو أبو شيبة - وشيبة هو عبد المطلب . وهو أبو الحارث وسيد الوادي غير ملِيق ، بن عمرو ، وهو هاشم بن المغيرة ، وهو عبد مناف .

ثم الذي تهياً لبني أبي طالب الأربعية : أنَّ أربعة إخوة كان بين كل واحد منهم وبين أخيه في الميلاد عشر سنين سواه ، وهذا عجب .

(١) أي خصيلة ، أو مبرزة . بـ : « واحد » تحرير ماقم .

(٢) في النسختين : « واحدة » تحرير .

(٣) هذا يورخ زمن تأليف هذا الكتاب ، وهو سنة ٢٤٨ ، أي قبل وفاة الماجستير بسبعين سنة .

ومن الغرائب التي خصوا بها ، أعني ولد أبي طالب ، لأنّا لا نعلم الإذكار في بلاد من البلدان ، وفي جيل من الأجيال ، [إلا^(١)] أهل خراسان فمن دونهم ، فإنّ الإذكار فيهم فاش ، كما أنك لا تجد من وراء بلاد مصر إلا يثنائاً ، ثم لا ترى فيهن مقدماً^(٢) بل لا ترى إلا التوأم من البنات .

فتنهيًّا في آل أبي طالب من الإذكار مالم تعرفه^(٣) في قديم الدهر وحديثه ، ولا فيها قرُب من البلدان ولا فيها يبعد .

وذلك لأنَّ آل أبي طالب أخصوا منه أعوام وحصلوا ، فكانوا قريباً من ألفين وثلاثمائة ، ثم لا يزيد عدد نسائهم على رجالهم إلا دون العشر^(٤) . وهذا عجب .

وإن كنت ت يريد أن تتعرف^(٥) فضل البنات على البنين ، وفضل إثاث الحيوانات على ذكورها ، فابداً فخذ أربعين ذراعاً عن يمينك ، وأربعين ذراعاً عن يسارك ، وأربعين خلفك ، وأربعين أمامك ، ثم عد الرجال والنساء حتى تعرف ما قبلنا^(٦) ، فتعلم أنَّ الله تعالى لم يحلل للرجل الواحد من النساء أربعاً ثم أربعاً ، متى وقع بين موت أو طلاق ، ثم كذلك للواحد^(٧) مابين الواحدة من الإناء إلى ما يشاء من العدد ، مجموعات ومفترقات ، لثلا يتفقان إلا ذوات أزواج^(٨) .

(١) تكلة ينقر إليها حمة الكلام .

(٢) أثنت : ولدت ولدا واحداً ، وإن كان من عادتها أن تلد واحداً فهي متذاذ .

(٣) في النسختين : « يعرفه » ، والوجه ما ثبت .

(٤) بـ : « لأدون العشر » ، صوابه في م .

(٥) م : « أن تعرف » .

(٦) بـ : « بما قلنا » .

(٧) في النسختين : « الواحد » .

(٨) بـ : « لذوات أزواج » م : « لذات أزواج » ، والوجه ما ثبت .

١٢٥:

الأوطان والبلدان

ولا نعلم في الأرض متى ذُكر السبّيق في الإسلام والتقدّم فيه، ومتى ذُكر الفقيه في الدين ، ومتى ذُكر الزهد في الأموال التي تَشَاجِرَ النَّاسُ عليها ، ومتى ذُكر الإعطاء في الماعون ، كان مذكوراً في هذه الحالات كلها إلّا على بن أبي طالب كرم الله وجهه.

قالوا : وكان الحسن يقول : قد يكون الرجل عالماً وليس بعابداً ، وعابداً وليس بعالماً ، وعابداً وليس بعاقل ، وعاقلاً وليس بعابداً . وسليمان ابن يسار^(١) عالم عاقل عابد ، فانظُر أين يقع خصال سليمان من خصال على بن أبي طالب رضي الله عنه ،

ولم يكن قد صدرنا في أول هذا الكتاب إلى ذكر هاشم ، وقد كان قد صدرنا الإخبار عن مكّة بما قد كتبناه في صدر هذا الكتاب ، ولكن ذكر خصال مكّة جرّ ذكر^(٢) خصال قريش ، وذكر خصال قريش جرّ ذكر^(٣) خصال بنى هاشم .

فإن أحببت أن تعرف جملة القول في خصال بنى هاشم فانظر في كتاب هذا الذي فرقْتُ فيه بين خصال بنى عبد مناف وبين بنى مهزوم ، وفرقْتُ^(٤) ما بين عبد شمس ؛ فإنه هناك أوفر وأجمع ، إن شاء الله تعالى .

(١) هو أبو أيوب ، أو أبو عبد الرحمن ، أو أبو عبد الله ، سليمان بن يمار الملائكي الذي مولى ميسونة ، ويقال كان مكتانياً لأم سلمة ، ذروري عن ميسونة وأم سلمة وغاثة وزيد بن ثابت وابن عباس وغيرهم . وعنه عزو وعبد الله ابن دينار ، وأبو الزناد والزعرى وثافع وغيرهم . وكان ثقة عابداً ، يصوم يوماً وينظر يوماً . ولد سنة ٢٧ وتوفي سنة ١٠٧ . تهذيب التهذيب وصفة الصفة ٢ : ٤٥ .

(٢) ب : « جر ذلك » ، صوابه في م .

(٣) ب : « جر ذلك » ، صوابه في م .

(٤) م : « وفرق » ، وأثبتت ماق ب .

ثم انظر في شأن ذوات البيض^(١) وذوات الأولاد فإنك سترى في دار خمسين دجاجة . وديكاً واحداً ، ومن الإبل المجمدة وفجلاً واحداً ، ومن الحمير العائنة وغيرها واحداً . فلماً حصلوا كل مثناث وكل مذكار ، فوجدو آل أبي طالب قد برعوا على الناس وفضلواهم^(٢) ، عرف الناس موضع الفضيلة له والخصوصية .

وَفِي وَلَدِ أَبِي طَالِبٍ أَيْضًا أَعْجَوْيَةً أُخْرَى ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يُوجَدْ قَطُّ فِي أَطْفَالِهِمْ طَفْلٌ يَجْبُوا ، بَلْ يَرْجِفُ زَحْفًا لَّهْلَأْ يُنْكَشَفَ مِنْهُ عَنْ شَيْءٍ يَسْوَمُهُ ، لِيَكُونَ أَوْفَرَ لِبَهَائِهِ ، وَأَدَلَّ عَلَى مَا خُصُّوا بِهِ .

وَلَمْ مِنَ الْأَعْجَيْبِ خَصْلَةً أُخْرَى ؛ وَذَلِكَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ زَيْدَ قَتَلَ الْحُسَيْنَ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ ، وَقَتَلَهُ اللَّهُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فِي السَّنَةِ الْأُخْرَى .

وَقَالُوا : لَا نَعْلَمُ مَوْضِعَ رَجُلٍ مِّنْ شَجَاعَانِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَانَ لَهُ مِنْ عَدَدِ الْقَتْلِ^(٣) مَا كَانَ لِعَلَى رَضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلَا كَانَ لِأَخْدِيْدَ مِنْ قَتْلِ الرُّؤْسَاءِ وَالسَّادَةِ ، وَالْمُتَبَعِّينَ وَالْقَادِهِ ، مَا كَانَ لِعَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَقَتْلِ رَئِيْسٍ وَاحِدٍ ، وَإِنْ كَانَ دُونَ بَعْضِ الْفُرَسَانِ فِي الشَّدَّةِ ، أَشَدُّ ؛ فَإِنَّ قَتْلَ الرَّئِيْسِ أَرَدَ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ وَأَقْوَى هُمْ مِنْ قَتْلِ الْفَارَسِ الَّذِي هُوَ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ السَّيْدَ .

وَأَيْضًا - أَنَّهُ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ قَتْلِ الرُّؤْسَاءِ وَبَيْنَ قَتْلِ الشَّجَاعَانِ .

وَلَهُ أَعْجَوْيَةً أُخْرَى ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ مَعَ كُثْرَةِ مَا قَتَلَ وَمَا بَارَزَ ، وَمَا مَهَى بِالسِّيفِ إِلَى السِّيفِ ، لَمْ يُخْرِجْ قَطُّ^(٤) لَا جَرَحَ إِنْسَانًا إِلَّا قَتَلَهُ ،

(١) في النسختين : « ولا ذات البيض » ، صوابه ما أثبت .

(٢) م : « وفضلوا » .

(٣) في النسختين : « من عذر القتل » ، والصواب ما أثبت . والمراد عدد من قتل من نسله .

(٤) م : « لم يخرج قط » ، صوابه في ب .

٧ - فصل منه

قالوا : وقد نتعجب الناس من ثبات قريش ، وجزالة عطائهم ، واحتمالهم المؤن الغلاط^(١) في دوام كسبهم من التجارة ، وقد علموا أنَّ البُخل والبَصْر^(٢) في القُفَيْف مقرؤون في التجارة ، وذلك خلق من أخلاقهم . وعلى ذلك شاهد أهل التربيق^(٣) والتكتُب والتَّدْنِيق^(٤) .

فكان في ثبات جودهم العالى على جود الأجداد ، وهم قوم لا كسب لهم إلا من التجارة ، عجب من العجب .

ثم جاء ما هو أعجب من هذا وأظم^(٥) ، وذلك أنَّا قد علمنا أنَّ الروم قبل التدين بالنصرانية^(٦) كانت تنتصُر من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سجالاً ، فلما صارت لا تدين بالقتل والقتال ، والقود والقصاص ، اعتراهم مثل ما يعتري الجنين حتى صاروا يتتكلّفون القتال تكلاً . ولما خامرت طبائعهم تلك الديانة ، وسررت في لحومهم ودمائهم فصارت^(٧) تلك الديانة تعرّض عليهم ، خرجوا من حدود الغالبية إلى أن صاروا مغلوبين .

ولى مثل ذلك صارت حال التُّغْزُر^(٨) من الترك . بعد أن كانوا

(١) ب : « المؤمن الغلاطي » ، صوابه في م .

(٢) في النسختين : « والبَطْر » .

(٣) تربيق المال : إصلاحه والقيام عليه . م : « التربيق » ، تحرير .

(٤) في النسختين : « والتكتُب » ، والوجه ما ثبت . والتَّدْنِيق : البخل والشح ، مأخذون من الدائق يكسر التنوين وفتحه عليه وهو سلس الدينار والدروم .

وفي حديث المسن : « لعن الله الدائق ومن دنق » . والمراد به هنا الحرص والدقة في المأمة .

(٥) أي أكثر وأعلم . ومنه الطامة ، وهي القيمة ، والدايمية .

(٦) م : « فسارت » ، صوابه في ب .

(٧) التُّغْزُر : جيل من الترك كانوا يعيشون في يقاع موغلة نحو النَّزب ، وكانوا جراثاً للرُّلُغ ، أو القرني . وقد انحدر من نسلهم أحد بن طلرون . انظر دائرة المعارف الإسلامية في رسها . ب : « التُّغْزُر » م : « التُّغْزُر » صوابهما ما ثبت . وانظر حواشى الكامل لابن الأثير ١١ : ١٧٨ بيروت .

أنجادهم وحماتهم ، و كانوا يتقدّمون الخُرُلُخية^(١) ، وإن كانوا في العدد أضعافهم ، فلما دأبوا بالزنقة ، ودين الرنقة في الكففة والسلم ، أسوأ من دين النصارى . نقصت تلك السجاعة ، وذهبت تلك الشهامة .

وقريش من بين جميع العرب دأبوا بالتحمُّس ، وتبشّدوا في الدين ، فتركوا الغزو كراهة للسبى . واستحلّ الأموال واستحسان العصبة^(٢) ، فلما تركوا الغزو لم تبق مكبسة سوى التجارة ، فضرروا في البلاد إلى قيسار بالروم ، وإلى النجاشي بالحبشة ، وإلى المُوقِّس بمصر^(٣) . وضيّعوا بأجمعهم تجارة خلطاء ، وبانوا بالديانة والتحمُّس ، فتحمّسوا بني عامر ابن صعصعة ، وحمّسوا الحارث بن كعب^(٤) ، فكانوا . وإن كانوا حماساً . لا يتركون الغزو والسبى ووطأ النساء ، وأخذوا الأموال ، فكانت نجدة لهم . وإن كان أنقصاً . فإنها على حال النجدة^(٥) . ولم في ذلك بقية^(٦) .

وتركت قريش الغزو بـ٢٠ ، فكانوا مع طول ترك الغزو . إذا غزوا كالأسود على براثنها ، مع الرأى الأصيل ، والبصيرة النافذة^(٧) .

أليس من العجب أن تبقى نجدهم ، وتشيّع بسالمهم ، ثم يتعلّون الأنجاد والأجداد ، ويقرّعون الشجعان^(٨) ! وهاتان الأعجوبتان بيتان^(٩) .

وقد علمَ أن سبب استفاضة النجدة^(١٠) في جميع أصناف الخارج

(١) ف ب : « المزبطة » م : « المزبطة » ، صوابهما ما ثبت . وانظر دائرة المعارف (خران) و (قرق) .

(٢) البقية : الفضل فيما يدخل به .

(٣) في النسختين : « ويرعون الشجعان » ، والوجه بما ثبت . فزع القوم ؛ علام وفاتهم .

(٤) في النسختين : « بليتان » .

(٥) ب : « أن السبب استفاضة النجدة » ، صوابه في م .

(٦) ب : « أن السبب استفاضة النجدة » ، صوابه في م .

ونقدِّمُهم في ذلك ، إنما هو بسبب الدّيانت ، لأنَّ نجد عبيدهم ومواليهم ونسائهم ، يقاتلون مثل قتالهم ، ونجد السجستان وهو عجمي ، ونجد البماني والبخاري والخوزي^(١) [وهم غير^(٢) عرب] ، ونجد إباضية عمان وهي بلاد عرب ، وإباضية تاهرت وهي بلاد عجم ، كلُّهم في القتال والنجد ، وثبات العزيمة ، والشدة في الباس سواه . فاستوت حالاتهم في النجدة مع اختلاف أنسائهم وبيلارتهم . ألمَّا في هذا دليل على أنَّ الذي سُوِّي بينهم التدين بالقتال ، وضروب كثيرة من هذا الفن^(٣) . وذلك كله مصور في كتابي ، والحمد لله .

وقد تَجِدون عموم السُّخف والجهل والكذب في الموعيد ، والغش في الصناعة ، في الحاكمة^(٤) ، فدللُ استواء حالاتهم في ذلك على استواء علائمهم . ليست هناك علة إلا الصناعة ؛ لأنَّ الحاكمة في كل بلد شيء واحد ، وكذلك النحاس وصاحب الخلقان^(٥) ، وبیاع السمك . وكذلك الملائكة وأصحاب السُّياد ، أولئك كانوا آخرهم ، وكهولهم كشبانهم ، ولكن قُلْ في استواء الحجاجين في حُبِّ النبيذ^(٦) !

٨- فصل منه في ذكر المدينة

وأمر المدينة عَجَبٌ ، وفي تُرُبها وتُرَابها^(٧) وهو أنها ، دليل شاهد

(١) م : « والخوارزمي » . والخوارزمي أهل خوزستان .

(٢) تكلة يفتقر الكلام إليها .

(٣) مابعده إلى « الحاكمة » الثالثة ، ساقطه من م .

(٤) انظر لأصحاب الخلقان ما مبني في ١٤٢ : والحيوان ٢ : ١٠٥ .

(٥) أي حدث عنهم ولا سرج .

(٦) التربة : ظاهر الأرض . ومثله في الحيوان ٢ : ١٤٢ : « وفي ريح ترابها وبة تربتها » .

وبرهان على قول النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إنَّهَا طَيِّبَةٌ تَنْفَعُ خَبَشَهَا وَتَنْصَعُ طَبَبَهَا^(١) » لأنَّ من دخلها أو أقام فيها ، كانها من كان^(٢) من الناس ، فإنَّه يجد من تربتها وحيطانها رائحة طيبة ، ليس لها اسم في الأرایخ^(٣) ، وبذلك السبب طاب طبَبَهَا والمعجنونات من الطَّيِّبِ فيها . وكذلك العود وجسم البخور ، يصاعف طبَبَهَا في تلك البلدة على كل بلد استعمل ذلك الطَّيِّب بعينه فيها . وكذلك صَيَّاحَهَا^(٤) والبلح^(٥) والأترج^(٦) والسفرجل^(٧) ، أعني المجعل منها سُجَّباً للصَّيبان والنساء^(٨) .

فإن ذكروا طيب سابور^(٩) فإنَّما طيب سابور بطيب أرياح الرياحين ، وذلك من ريح رياحينها وبساتينها وأنوارها ، وذلك يقوى في زمان ، ويضعف في زمان
ونحن قد ندخل دُجْلَة^(١٠) في نهر الأبلة بالأسحار ، فنجد من تلك

(١) في الإنسان (نصع) : « وفي الحديث : المدينة كالكثير ، تُنْفَعُ خَبَشَهَا وَتَنْصَعُ طَبَبَهَا ؛ أَيْ تَخْلُصُهَا » . وانظر الآلف المختار الحديث ١٥٩ . فيه رواية أخرى .

(٢) م : « مكان » .

(٣) وكذلك في الحيوان ٧ : ٢٣٠ : « وجد منها عرقاً طيباً وبنة عجيبة لا تُخْفِي على أحد ولا يستطيع أن يسمِّيه » .

(٤) الصياغ ، بوزن كثان: عطر أو غسل ، كما في القاموس . وفي النسختين : « صَيَّاحَهَا » .

تعريف . وانظر الحيوان ٣ : ١٤٢ - ١٤٣ .

(٥) في النسختين : « والثَّلْجُ » ، صوابه من الحيوان ٣ : ١٤٤ ، وفيه : « وإن الجوري

السوداء لتجعل في رأسها شيئاً من بلح وشيئاً من نسجور ما لا قيمة له لهوانه على أهله ، فتجد لذلك

خرة طيبة ، وطيب رائحة لا يعدلها بيت عروس من ذوى الأقدار » .

(٦) السُّخْب ، بفتحتين : جمع سخاب كتاب ، وهو خيط ينظم فيه عرق وثقبه الصبيان والجواري .

(٧) سابور : كورة بأرض فارس ، مدینتها التوبندجان ، أو شهرستان : وهي كورة نزة كذا ذكر ياقوت .

(٨) ب : « دخلة » ، صوابه في م .

(٩) رسائل الماجستير - ج ٤

وليس بلدية من البلدان من الشهرة^(١) في الفقه مالهم ولرجالهم ، وذكر عبد الملك بن مروان روح بن زباع^(٢) فمدحه فقال : جمع أبو زرعة فقه الحجاز ، ودهاء العراق ، وطاعة أهل الشام^(٣) :

٩- فصل منه في ذكر مصر

قال أبو الخطاب^(٤) : لم يذكر الله جل وعز شيئاً من البلدان باسمه في القرآن كما ذكر مصر ، حيث يقول : « وقال الذي اشتراه من مصر لامرائه أكبرى مثواه^(٥) ». وقال : « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبوه و قال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين^(٦) ». وقال : « وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكم بما في مصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة^(٧) ». وقال تعالى : « اهبطوا مصر فإن لكم ما سالت^(٨) ». وقال في آية : « أليس لملك مصر وهو الأنهار تجري من تحت^(٩) » .

(١) في التسخين : « الشهوة » ، صوابه ما أثبت .

(٢) هو أبو زرعة روح بن زباع بن روح بن سادمة الجذامي . قال ابن حجر في الإصابة : ذكره بضمهم في المساحة ولا يصح له صحة ، بل يجوز أن يكون ولد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . وكان أحد ولادة فلسطين أيام يزيد بن معاوية . الأغافل ١٧ : ١١١ ، وروى عبد الملك ابن مروان أن جعفر بنت النبان بن بشير . الحيوان ١ : ٢٢٦ . وكأنه ميد جدام ، البيان ٣٤٦ : ١ .

(٣) التبر في الإصابة ٢٧٠٧ .

(٤) أبو الخطاب هذا هو قادة بن دعامة السدوسي البصري ، وهو من ولد أبي ، وكان تابعاً غالباً كبيراً لتسابقة ، وذا علم في القرآن والحديث والفقه . أخذ عن الحسن وابن سيرين ، وعن أبيوب السختياني وهشام الدستواني وسعيد بن أبي عروبة وغيرهم . وروى له البخاري ومسلم وأبو داود والترمذى والنمساوى وابن ماجه . ولد سنة ٦١ وتوفى سنة ١١٧ في أيام هشام بن الملك .

تهذيب التهذيب ، ووفيات الأنبياء ، وسميم الأدباء ، والمغارف ، ونكت المحيانا .

(٥) الآية ٢١ من سورة يوسف . (٦) الآية ٩٩ من سورة يوسف .

(٧) الآية ٨٧ من سورة يوسف . والكلام بعدها إلى « تجرى من تحت » ساقط من بـ .

(٨) الآية ٦١ من سورة البقرة . وقرأ الحسن والأعمش : « مصر » بلا تنوين . وانظر

إنتحاف فضلاء البشر ١٣٧ .

(٩) الآية ٥١ من سورة الزخرف .

الحدائق ، ونحن في وسط النهر ، مثل ما يجد أهل سبور من تلك الرائحة .

وطيبة^(١) التي يسمونها المدينة ، هذا الطيب خلقة فيها ، وجوه رية منها ، موجود في جميع أحوالها . وإن الطيب والمعجونات^(٢) لتتحمّل إليها فتزداد فيها طيباً ، وهو ضد^(٣) قضية الأهواء وأنطاكيّة ، فإن الغول تستحبيل الاستحالة الشديدة^(٤) .

ولسنا نشك أن ناساً يتتابون^(٥) الموضع التي يباع فيها النوى المنقع ، فيستنشقون تلك الرائحة ، يُعجبون بها ويتمسونها ، بقدر فرارنا نحن من موقع النوى عندنا بالعراق ، ولو كان من النوى المعجون ومن نوى الأفواه^(٦) .

ونحن لا نشك أن الرجل الذي يأكل بالعراق أربع جرائد^(٧) في مقعد واحد من الميساني^(٨) والموصلي^(٩) ، أنه لا يأكل من أقراص المدينة قرصين ؛ ولو كان ذلك لغلاظ فيه أو لفساد كان في حبه وطجيئه لظهور ذلك في التّنم وسوء الاستمرار ، وتولّد على طول الأيام من ذلك أوجاع وفساد كثير .

ولم يكن بها طاعونٌ قطٌ ولا جذام .

(١) طيبة ، بالفتح : اسم المدينة ، وبالكسر : اسم من أسماء زرم .

(٢) بـ : « عند » ، صوابه في م ^{بـ} .

(٣) النالية : ضرب من الطيب ، وقد تقتل ، أي تخنق بها .

(٤) بـ : « يتذابون » .

(٥) المعجم : المدقوق . والأداوه : جمع فوه كسوق ، وهي التوابل ونواتج الطيب . وانظر الحيوان ٣ : ١٤٤ .

(٦) البردة : الرغيف ، فارسي مغرب . ويقال جرد أيضاً .

(٧) نسبة إلى ميسان ، بالفتح ، وهي كورة بسوان العراق .

وذكر مصر في القرآن بالكناية عن خاصة اسمها ، فمن ذلك :
 »وقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ^(١)« قالوا^(٢) :
 هِيَ مَدِينَةُ مَنْفٍ^(٣) ، وَهُوَ مَوْضِعُ مَنْزِلِ فَرْعَوْنَ .

وأخبرني شيخ من آل أبي طالب من ولد على صحيح الخبر : مَنْفُ دار فرعون ، وَدُرْتُ في مجالسيه ومتواهيه^(٤) وغرفة وصفاته ، فإذا كله حجر واحد منقول : «فإن كانوا هندموه وأحكوا بناءه حتى صار في الملاسة واحداً لا يُستَبَانُ فيه مجتمع حجورين ، ولا مُلتَقَى صخرتين فهذا عجب» . ولئن كان جيلاً واحداً ، ودكاً واحداً ، فنقرته الرجال بالناقوير حتى خرفت فيه تلك المخاريق ، إن هذا لأعجب .

وفي القرآن : «فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ^(٥)» .

قال : والأرض هنا مصر . وفي هذا الموضع كلام حسن ، ولكن ندعه مخافة أن نخرج إلى غير الباب الذي ألقينا له هذا الكتاب .

قالوا : وسُمِّيَ اللَّهُ تَعَالَى مَلِكُ مِصْرَ «العزيز» ، وهو صاحب يوسف ، وسمى صاحب يوسف «فرعون» .

قالوا : وكان أصل عتو فرعون ملك العظيم ، ومملكته التي لاتُشبهها مملكة .

(١) الآية ٢٠ من سورة يوسف .

(٢) ب : «قال» .

(٣) في النسخين : «مرو» ، صوابه ما ثبت . وانظر ما سيأتي .

(٤) المثوى : المنزل ، وموقع الإقامة . وفي النسخين : «ومساوته» ، وهو تصحيف ما ثبت .

(٥) الآية ٨٠ من سورة يوسف .

قالوا : ومنهم مؤمن آل فرعون ، وهي آسية بنت مُراحم .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «سيدة نساء العالم خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومریم بنت عمران ، وآسية بنت مُراحم» .

قال^(١) : ولما هم فرعون بقتل موسى قالت آسية : لا تقتله عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً . وقالت : وكيف تقتله ، ووالله ما يعرف الجمرة من التمرة .

ومنهم السحره الذين كانوا قد أبُروا على أهل الأرض^(٢) ، فلما أبصروا بالأعلام ، وأيقنوا بالبرهان ، استبصروا وتابوا توبه متابتها ما عزُّ بن مالك^(٣) ، ولا أحد من العالمين ، حتى قالوا لفرعون : «اقض ما أنت قاض ، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ، إنما آمنا بربنا ليغفر لنا خطابانا وما أكْرَهْتَنا عليه من السحر^(٤)» .

وجاء في الحديث : «من أخرب خزائن الله فعلى رءوفة الله». قالوا^(٥) :

(١) أى شيخ من آل أبي طالب . أو لعلها : «قالوا» .

(٢) أبُروا عليهم إبراراً : غلوتهم . ومنه قول طرفة :

يُكْشِفُونَ الْفَرَّ عن ذي ضرْه وَيَرُونَ عَلَى الْأَبْ مَسْرَبَ

وَنَسْخَتِينَ : «قد أبُروا على أهل الأرض» ، صوابه ما ثبت .

(٣) ماعز بن مالك : أحد الصحابة ، كان قد زُفَقَ فافتر على نفسه ، وانطلق إلى رسول الله

يطلب منه إقامة المدع عليه ، وإلتح في ذلك المقام . فامر الرسول برجه فرم ، فلما عصى

من الحجارة انطلق يسعى ، فما جله رجل يلحي جزور فضربه فصرعه . وقال صل الله عليه وسلم

في شأنه : «لقد ثاب توبه لو تابها طالفة من أمي لأجزاء عنيم» ، كما قال : «والله نفسي

بيده إنه الآن لن أنهار الجنة يتقصى فيها» . انظر مسند أحد^(٦) : ٢١٧ والسنن الكبرى

البيهقي ٨ : ٢٢٥ - ٢٢٨ ومسن ٢ : ٣٣ - ٣٥ والإصابة ٧٥٨١ وتأويل مختلف الحديثابن

قطيبة ٢٤١ - ٢٢٨ قتيبة : ٧٧ من سورة طه . ونصها : «فاقتض ما أنت قاض» ، والاقتباس من القرآن

الكرمي مع ترك حرف جائز لا يأس به . انظر حوثي الميزان^(٧) : ٥٧ وتحقيق النصوص ٥١

(٥) ب : «قال» ، وأثبت ما في م .

خزائن الله هي مصر ، أما سمعت قول يوسف : « اجعلني على خزائن الأرض » ؟

وقال عبد الله بن عمرو : « البركة عشر بركات : تسعة مصر والواحدة في جميع الأرض » .

١٠ - فصل منه

وقال أهل العراق : سأتنا بطريق خوشنة^(٣) عن خراج الروم ، ذكر مقداراً^(٤) من المال ، وقال . هو كذلك وكذا قنطرة . فنظر بعض الوزراء فإذا خراج مصر وحده يُضعف على خراج بلاد الروم إذا جُمعت أبواب المال من البلاد جميعاً .

وزعم أبو الخطاب^(٥) أنَّ أرض مصر جُبِيتْ أربعة آلاف ألف دينار .

١١ - فصل منه

ولا أعلم الفرق في المغرب إلا أكثر من الفرق في الشرق ، إلا أنَّ أهل المغرب إذا خرجوا لم يزيدوا على البدعة والضلال ، والخارجي في

(١) الآية ٥ من سورة يوسف .

(٢) خوشنة : بلد قرب ملطية من بلاد الروم ، كما في ياقوت . وانظر المحيوان ٣ : ٢١٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٤ ، ٢٦٥ . وفي النسختين : « حرسه » ، صوابه ما أثبت .

(٣) بـ : « مقدار » ، صوابه في م .

(٤) أبو الخطاب قادة بن دعامة المترجم في ص ١٣١ .

المشرق لا يرضى بذلك حتى يجوزه إلى الكفر ، مثل المقنع^(١) وشيان^(٢) والإصبهيذ^(٣) وبابك^(٤) ، وهذا الضرب .

١٢ - فصل منه

وقد عالمنا أنَّ لجماعة بنى هاشم طابعاً^(٥) في وجوههم يستبين به كرم العنق وكرم التجار^(٦) ، وليس ذلك لغيرهم .

ولقد كادت الأهواز تُفسد هذا المعنى على هاشمية الأهواز ، ولو لا

(١) هنا هو المقنع المنساني ، وكان قد خرج على المهدى بن عيسى سنة ١٦١ . وكان أمور قصاراً ، من قرية يقال لها « كازار كيردان » ، وكان قد عرف شيئاً من المدينة والليل والنهار فادع نفسه الإلهية عن طريق التناستخ ، واحتجب عن الناس برق من حرير ، وداشت فتنته على المسلمين أربع عشرة سنة ، أباح لهم فيها كثيراً من الحرمات ، فوجه إلى المهدى علة من قوله ، وجمل المقنع يجتمع الطعام عدة للمسار في قلنته بكش ، وقد كمن سعيد الحرشى من تشديد المصار عليه ، فلما أحسن بالملائكة شرب سماً وسقاها نساه وأهلها فاتوا جيماً ، ودخل المسلمين قلنته سنة ١٦٣ واستتروا رأسه ووجهوا به إلى المهدى . الطبرى في حوادث ١٦١ - ١٦٣ - والفرق بين الفرق ٢٤٣ - ٢٤٥ والأثار الباقية للبيروني في ٢١١ وشرح سقط الزند ١٥٤٥ .

(٢) هو شيان بن عبد التزير الحروري الشكري ، الذى خرج في أيام مروان بن محمد بعد مقتل الصاحب ابن قيس الشياق رأس الحوارج ، وقد طارده مروان حتى صار شيان إلى عمان فقتلها بها جلتدى بن مسعود سنة ١٢٩ . الطبرى في حوادث سنة ١٢٩ . وفي النسختين : « سيفاد » .

(٣) هو الفرشان ، إصبهيذ خراسان على طبرستان . وقد جرى فتح طبرستان على يد سعيد ابن مقرن سنة ٢٢ ، وذلك بعد عهد بالصلح قارئنة سنة ١٨ . انظر الطبرى . والإصبهيذ هو بالفارسية « إسبييد » بفتح الياء الأولى فقط ، ومتنه : القائد العام . استتباجاس ٤٨ . وفي بـ : « والإصبهيذ » وفـ : « والإصبهيذ » ، صوابهما ما أثبت .

(٤) هو بالك الترى ، رئيس القرية بعد موت زعيمهم جاويidan بن سهل ، وانتد شوكته في أيام المتصم ، وحاربه الأفتشين واستول على مقلاة مدينة البلد ، ثم وقع في يد سهل بن سنباط بطريق أرميلية وقبض عليه وهو يصطاد ، وسلمه إلى الأفتشين ، وصلبه المتصم سنة ٢٢٣ . الطبرى ، ودائرة المعارف الإسلامية .

(٥) بـ : « أن الجماعة بنى هاشم » ، صوابه في م .

(٦) بـ : « طابعاً » ، صوابه في م . والطابع بالفتح والكسر : الخامن الذى يتم به ، وكذا المسمى الذى توسع به الدواب ، والمراد هنا الملامة .

(٧) التجار ، بكسر التون ؛ الأصل والحسب . بـ : « التجار » ، م : « البخار » صوابهما ما أثبت .

أنَّ اللَّهَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ لَقَدْ كَادَتْ^(١) طَمَسَتْ عَلَى ذَلِكَ الْعَنْقُ وَمَحَّتْهُ^(٢) فَتَرَيْتُهَا خَلَافُ تَرْبَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣) وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مِنْ تَخْرُقٍ طَرَقَ الْمَدِينَةَ^(٤) وَجَدَ رَائِحَةً طَيِّبَةً لَيْسَ مِنَ الْأَرَابِيِّعِ الْمُوْرُوفَةِ الْأَمْمَاءِ^(٥).

١٣ - فصل منه

قال زياد : الكوفة جارية جميلة لا ماء لها ، فهي تخطب لجماحتها ، والبصرة عجوز شوهد ذات ماء فهي تخطب مالها .

١٤ - فصل منه

والفراتُ خَيْرٌ مِنْ مَاءِ النَّيلِ^(٦) . وإنْ دِجلَةً فَإِنَّ مَاءَهَا يَقْطَعُ شَهْوَةَ الرِّجَالِ . ويَدْهَبُ بِصَهْيلِ الْخَيْلِ ، وَلَا يَذْهَبُ بِصَهْيلِهَا إِلَّا مَعَ ذَهَابِ نَشَاطِهَا ، وَنَقْصَانِ قَوَاهَا ؛ وَإِنْ لَمْ يَتَنَسَّمْ^(٧) النَّازِلُونَ عَلَيْهَا أَصَابِّهِمْ قَحْوَلُ فِي عَظَامِهِمْ^(٨) ، وَيُبَسِّسُ فِي جَلُودِهِمْ .

وَجَمِيعُ الْعَرَبِ النَّازِلِينَ عَلَى شَاطِئِ دِجلَةِ مِنْ بَغْدَادٍ إِلَى بَلَدِ^(٩)

(١) فِي النَّسْخَيْنِ : « لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَقَدْ كَادَتْ » ، وَالوَجْهُ إِثْبَاتُ الْوَادِي فِي أُولَى الْكَلَامِ وَسَلْفُهَا فِي آخِرِهِ .

(٢) فِي النَّسْخَيْنِ : « وَمَجْبَهُ » ، صَوَابُهَا مَا أَثْبَتَ .

(٣) تَخْرُقُ ، أَرَادَ يَتَخلَّلُ . وَلَمْ يَجِدْ نَصَاعًا عَلَى هَذَا الْقُلْلِ إِلَّا مَا وَرَدَ فِي الْإِسْلَامِ ١١ : ٣٦ : قَالَ أَبُو عَدْنَانٍ : الْخَارِقُ : الْمَلَاقِ : الْمَلَاقُ يَتَخْرُقُونَ الْأَرْضَ ، بَيْنَهُمْ بَارِضٌ إِذَا هُمْ بِأَخْرِيٍّ » . وَكَذَا مَا وَرَدَ فِي الْحَيْوَانِ ٢ : ٢٣١ مِنْ قَوْلِهِ : « يَتَخْرُقُ السَّنَائِرِ » .

(٤) يَعْنِي نَيلَ الْكَوْفَةِ ، وَهُوَ خَلْجٌ كَبِيرٌ يَتَخلَّلُ مِنْ الْفَرَاتِ ، حَفْرُهُ الْمَجَاجُ بْنُ يُوسُفُ وَسَيَاهُ بِاسْمِ نَيلِ مَصْرُ .

(٥) النَّفَسُ : طَلْبُ النَّسِيمِ وَاسْتِشَاقُهُ . فِي النَّسْخَيْنِ : « يَتَبَسِّمُ » ، وَلَا وَجْهُ لِهِ .

(٦) الْفَحْوَلُ : الْبَيْسُ . مِنْ الْفَحْوَلِ » صَوَابُهُ فِي بِ .

(٧) بَلَدٌ : مَدِينَةٌ قَدِيمَةٌ عَلَى دِجلَةِ فَوْقَ الْمُوْصَلِ ، بَيْنَهُمَا سَيْعَةٌ فَرَاسَخٌ ، وَيَنْسَبُ إِلَيْهَا جَمَاعَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْعَلَمَاءِ . وَيَقَالُ لَهَا أَيْضًا « بَلْطٌ » بِالْطَّاءِ . قَالَ يَاتُورُتْ : « وَبَلَدٌ أَيْضًا : بَلَدٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْ نَوَاسِي دِجَلٍ قَرْبَ الْخَظَبَرَةِ وَحْرَبِيِّ ، مِنْ أَعْمَالِ بَغْدَادٍ ، لَا أَعْرِفُ مِنْ يَنْسَبُ إِلَيْهَا » .

لَا يَرْعُونَ الْخَيْلَ فِي الصَّيفِ عَلَى أَوَارِيهَا^(١) عَلَى شَاطِئِي دِجلَةِ ، وَلَا يَسْقُونَهَا مِنْ مَائِهَا ، لَا يَخَافُ عَلَيْهَا مِنَ الصَّدَامِ^(٢) ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآفَاتِ . وَأَصْحَابُ الْخَيْلِ مِنَ الْعَنَاقِ وَالْبَرَادِيْنِ إِنَّمَا يَسْقُونَهَا بُسْرًا مِنْ رَأْيِ^(٣) ، مَمَّا احْتَفَرُوا مِنْ كَارِبَاتِهِمْ^(٤) لَا يَسْقُونَهَا مِنْ مَاءِ دِجلَةِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ مَاءَ دِجلَةَ مُخْتَلِطٌ ، وَلَيْسَ هُوَ مَاءً وَاحِدًا ، يَنْصَبُ فِيهَا مِنَ الزَّائِبِينِ^(٥) وَالنَّهَرَوَانَاتِ^(٦) وَمَاءَ الْفَرَاتِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ مَاءِ الْمَيَاهِ .

وَانْخِلَافُ الطَّعَامِ إِذَا دَخَلَ جَوْفَ الْإِنْسَانِ مِنْ أَلوَانِ الطَّبَيْرَيْنِ وَالْإِدَامِ غَيْرَ ضَارٍ^(٧) ، وَإِنْ دَخَلَ جَوْفَ الْإِنْسَانِ مِنْ شَرَابٍ مُخْتَلِطٍ كَثِيرِ الْخَمْرِ وَالسَّكَرِ وَنَبْيَدِ التَّمْرِ وَالدَّادِيِّ كَانَ ضَارًا . وَكَذَلِكَ الْمَاءُ ، لَأَنَّهُ مَيْ أَرَادَ أَنْ يَتَجَرَّعَ جُرْعًا مِنَ الْمَاءِ الْحَارِ لِصَدْرِهِ أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكِ ، فَإِنْ أَعْجَلَهُ أَمْرُ فَبِرْدُهُ مَاءً بَارِدًا ثُمَّ حَسَاهُ ضَرَهُ ذَلِكَ ، وَإِنْ تَرَكَهُ حَتَّى يَفْتَرَ بِبِرْدِ الْمَوَاءِ لَمْ يَضُرُّهُ . وَسَبِيلُ الْمَشْرُوبِ غَيْرُ سَبِيلِ الْمَأْكُولِ .

فَإِنْ كَانَ هَذَا فَضْيَلَةً مَائِنَا عَلَى مَاءِ دِجلَةِ فَمَا ظُنِّكَ بِفَضْلِهِ عَلَى مَاءِ

(١) الْأَوَارِيُّ : بَعْ جَعَ آرَى ، عَلَى وَزَنِهِ فَاعُولٌ . وَهُوَ مَجْبَسُ الدَّالِيَةِ ، بِ : « أَوَرَاهَا » صَوَابُهُ فِي مِ .

(٢) الصَّدَامُ ، بَضمِ الصَّادِ وَكُسرِهَا ؛ دَاهٌ يَأْخُذُ فِي رَوْسِ الدَّوَابِ . وَقَالَ أَبْنَيْ شَمِيلٍ :

دَاهٌ يَأْخُذُ الْإِبَلَ فَتَخَصُّصُ بِطَلَوْنَاهَا وَتَدْعُ الْمَاءَ وَهِيَ طَاعِشَةً أَلِيَّاً حَتَّى تَبْرُأَ أَوْ تَمُوتُ .

(٣) مِنْ : « بَيْثُرٌ مِنْ رَأْيٍ » ، تَحْرِيفٌ . وَالْكَرَابُ : مَجَارِي الْمَاءِ فِي الْوَادِيِّ .

(٤) الْزَّائِبُ : مَثْقَلُ الْرَّابِ ، الْرَّابُ الْأَعْلَى وَالْرَّابُ الْأَسْفَلُ ، فَالْأَعْلَى بَيْنَ الْمُوْصَلِ وَأَدَبِلِ .

(٥) الْزَّائِبِينِ : صَوَابُهُ فِي مِ . وَبَيْنَهُمَا « كَرَاهِمُ » . وَالْكَرَابُ : مَجَارِي الْمَاءِ فِي الْوَادِيِّ .

(٦) هُوَ ثَلَاثَ نَهَرَوَانَاتٍ : الْأَعْلَى ، الْأَوْسَطُ ، الْأَسْفَلُ . وَهِيَ كُورَةٌ وَاسِّعةٌ بَيْنَ بَغْدَادٍ وَوَاسِطَهِ مِنَ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ .

(٧) بِ : « غَيْرُ ضَارٍ » ، صَوَابُهُ فِي مِ .

البصرة ، وهو ماء مختلط من ماء البحر ومن الماء المستنقي في أصول القصب والبردي؟ قال الله تعالى: «هذا عذب فرات وهذا ملح أحاج»^(١). والفرات أعلتها عدوية ، وإنما اشتق الفرات لكل ماء عذب ، من فرات الكوفة :

١٥ - فصل منه في ذكر البصرة كان يقال : الدنيا البصرة^(٢)

وقال الأخفف لأهل الكوفة : «نحن أغذى منكم بريّة^(٣) ، وأكثر منكم بحرية ، وأبعد منكم سرية ، وأكثر منكم ذرية^(٤)». وقال الخليل بن أحمد في وصف القصر المذكور بالبصرة^(٥) : رُوِّيَ وادِيُّ الْقَصْرِ نَعْمَ الْقَصْرُ وَالْوَادِيِّ

لَا بدَّ مِنْ زَوْرَةِ عَنْ غَيْرِ مِيعَادٍ^(٦)
تَرَقَّى بِهَا السُّفُنُ وَالظَّلَمَانُ وَاقْفَةً
وَالضَّبُّ وَالثُّنُونُ وَالملائكة الحادي^(٧)

(١) الآية ٥٢ من سورة الترقان . (٢) في النسختين : «الدنيا والبصرة» .

(٣) في النسختين : «أعلى» ، تحريف ، «أعلى» بالذال من المدنة بفتح العين ، وهي الأرض الخصبة ، وانظر البيان ٢ : ٩٣ - ٩٤ ، وفي مخابر الراغب ٢ : ٢٦٤ : «أعذب منكم بريّة» ، تحريف .

(٤) نظير هذا القول في معجم البلدان في دسم الكوفة ، منسوب إلى عبد الملك بن الأهم السعدي بليقظ ، «نحن وأنت يا أمير المؤمنين أونس منتم بريّة ، وأعد في السرية ، وأكثر منهم ذرية ، وأظم منهم ثغرًا . يائينا ما ونا عفراً صنواً ، ولا يخرج من عندنا إلا ساقن أو قائد» .

(٥) انظر نسبة الشعر في جوايشي الحيوان ٦ : ٩٨ . والقصر الذي يشير إليه هو قصر أوس بن ثعلبة ابن ذئفر بن نوبيدة ، وكان على شزاران في الدولة الأسرورية . وبالبصرة أيضاً قصر أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله وسلم . وانظر معجم البلدان .

(٦) بـ : «من غير ميعاد» .

(٧) الظلمان ، بالكسر والضم أيضًا : جمع ظليم ، وهو ذكر النعام . بـ «والظلمات» ، صوابه في م وعيون الأخبار ١ : ٢١٧ حيث ورد بهذه الرواية . وفي الحيوان : «ترى به السفن كالظلمان واقفة» . وفي البديمة ١ : ٩٦ وثمار القلوب ٤١٨ : «ترقى به السفن والظلمان حاضرة» .

ومن أني هذا القصر وأني قصر أنس^(١) رأى أرضًا كالكافور^(٢) ، وتربة ثرية ، ورأى ضيًّا يُحترش ، وغزالاً يُقتَنِص ، وسمكًا يُصاد ، ما بين صاحب شص^(٣) وصاحب شبكة ، ويسمع غناءً ملائج على سُكَانِه ، وخداءً جمال على بعيره .

قالوا : وفي أعلى جبأة البصرة موضع يقال له الحزير^(٤) يذكر الناس أئمَّهم لم يرُوا قطُّ هواءً أعدل ، ولا نسيماً أرق ، ولا ماءً أطيب منها في ذلك الموضع .

وقال جعفر بن سليمان^(٥) : «العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمريد عين البصرة ، وداري عين المريد» .

وقال أبو الحسن وأبو عبيدة : «بُصُّرتُ البصرة سنة أربع عشرة ، وَكُوْفَّتُ الكوفة سنة سبع عشرة» .

١٦ - فصل منه

زعم أهل الكوفة أنَّ البصرة أسرع الأرض خراباً ، وأنْجَبَها تراباً ، وأبعدها من السماء وأسرعها غرقاً ، ومقيسها منها البحر ، ثم يخرج ذلك إلى البحر الأعظم .

وكيف تغرق^(٦) ، وهم لا يستطيعون أن يوصلوا ماء الفيض^(٧) إلى

(١) هو قصر أنس بن مالك ، كما يسبق في المرواني ص ١٣٨ .

(٢) الكافور ؛ ضرب من الطيب . بـ : «الكافور» ، صوابه في م .

(٣) الحزير ، بزامين معجمتين ، كما في معجم البلدان . وفي م : «الحزير» ، تحريف .

(٤) المقصد : ٢٤٩ .

(٥) بـ : «يرف» ، صوابه في م .

(٦) بـ : «النفيض» بالمعنى المعجمة .

حياضهم لاً بعد أن يرتفع ذلك الماء في الماء ثلاثة ذراعاً ، في كل سقاية بعيتها ، لا لحوض بعيته^(١) .

وهذه أرض بغداد في كل زيادة ماء ينبع الماء في أجوف قصورهم الشارعة بعد إحكام المسنيات^(٢) التي لا يقوى عليها إلا الملوك ، ثم يهدمون الدار التي على دجلة فيكسون^(٣) بها تلك السكك ، ويتوّقعون الفرق في كل ساعة .

قال : هم يعيشون ماء البصرة ، وما البصرة رقيق قد ذهب عنه الطين والرمل المشوب بماء بغداد والكوفة ، لطول مقامه بالطبيحة ، وقد لأن وصفها ورق^(٤) .

وإن قلت : إن الماء الجاري أمرأ من الساكن ، فكيف يكون ساكناً مع تلك الأمواج العظام والرياح العواصف ، والماء المتقلب من العلو^(٥) إلى السفل ؟ ومع هذا إنه إذا سار^(٦) من مخرجـه إلى ناحية المدار^(٧) ونهر أبي الأسد^(٨) وسائر الأنهار ، وإذا بعد من مدخلـه إلى البصرة من الشق القصير ، جرى منتصضاً إلى الصخور والحجارة ، فراسخ وفراشـ، حتى ينتهي إلينا .

(١) ب : « ياض كيز انهم » ، صوابه في ش .

(٢) المسنيات : بمع معناها ، وهو سد يبني لجزء ماء السيل أو النهر ، به مفاتيح الماء تفتح على قدر الحاجة ، م : « المسنيات » .

(٣) فيكسون : بـ : « فيكسون » ، والوجه ما ثبت .

(٤) ب : « من العوال » ،

(٥) في النسختين : أ : « صار » .

(٦) المدار : بلدة في ميسان بين واسط والبصرة ، فتحها عتبة بن غزوان في أيام عمر بن الخطاب بعد البصرة ، وفي النسختين : « الدار » ، صوابه ما ثبت .

(٧) ذكره ياقوت وقال : « أحد شعوب دجلة بين المدار ومطاراة في طريق البصرة ، يصب هناك في دجلة العظمى » .

ويدل على صلاح مائهم كثرة دورهم ، وطول أممارهم ، وحسن عقولهم ، ورفق أئمهم ، وحدوثهم لجميع الصناعات ، وتقديرهم في ذلك لجميع الناس .

ويستدل على كرم طبئهم ببياض كيزيانهم^(١) وعلوية الماء البائت في قلام ، وفي لون آجرهم ، كائناً سلوك من مع بيض^(٢) ، وإذا رأيت بناءـهم وببياضـ الجنس الأبيضـ بين الآجرـ الأصفرـ لم تجدـ لذلكـ شيئاً أقربـ من الفضةـ بينـ تصاعيفـ الذهبـ :

إذا كان زمانـ غالبةـ ماءـ البحرـ فإنـ مُستقـاـهمـ منـ العـذـبـ الزـلالـ الصـافـ ، التـميرـ فيـ الأـبـدـانـ^(٣) ، علىـ أـقـلـ منـ فـرـسـخـ ، وـرـبـماـ كانـ أـقـلـ منـ مـيـلـ .

ونهرـ الكوفـةـ الـذـىـ يـسـمـونـهـ إـنـماـ هوـ شـعـبـةـ مـنـ آـهـارـ الفـراتـ ، وـرـبـماـ جـفـ حـتـىـ لاـ يـكـونـ لهمـ مـسـتـقـىـ إـلـاـ عـلـىـ رـأـسـ فـرـسـخـ^(٤) ، وـأـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ ، حـتـىـ يـحـفـرـواـ الـآـبـارـ فـبـطـونـ نـهـرـهـ^(٥) ، وـحتـىـ يـفـسـرـ ذـلـكـ بـخـضـرـهـ وـأشـجـارـهـ . فـلـيـنـظـرـواـ إـيـمـاـ أـصـفـ وـأـيـمـاـ أـعـيـبـ .

ولـيـنـ نـهـرـ مـنـ آـهـارـ الـتـىـ تـصـبـ^(٦) فـدـجـلـةـ إـلـاـ هوـ أـعـظـمـ وـأـكـبـرـ وأـعـرـضـ مـنـ مـوـضـعـ الجـسـرـ^(٧) مـنـ نـهـرـ الكـوـفـةـ ، وـإـنـمـاـ جـسـرـهـ سـيـعـ سـفـائـنـ ،

(١) ب : « ياض كيز انهم » ، صوابه في ش .

(٢) مع البيض : ماء داخلـهـ منـ أـصـفـ وـأـيـضـ . والـحـ أـيـضاـ : صـفـرـةـ الـبـيـضـ ، وـبـيـاضـ هوـ التـرـقـ . وـفـيـ النـسـخـيـنـ : « مـعـ بـالـعـجـبـ » ، صـوـابـهـ مـاـ ثـبـتـ .

(٣) النـيرـ : الـرـاكـيـ النـاجـعـ فـيـ الرـىـ .

(٤) فـيـ النـسـخـيـنـ : « فـرـسـ » ، وـالـوـجـهـ فـيـ مـاـ ثـبـتـ .

(٥) النـهـرـ ، بـضمـينـ : بـمعـ نـهـرـهـ . وـفـيـ الـكـتابـ الـفـزـيـ : « إـنـ المـقـيـنـ فـيـ جـاتـ وـنـهـرـ » فـيـ قـرـاءـةـ زـهـيرـ ، وـأـعـشـ ، وـأـبـ نـيـلـ ، وـأـبـ جـازـ الـيـاقـ ، وـهـوـ كـرـهـ وـرـهـ . قـبـيـرـ أـبـ حـيـانـ ٨ : ١٨٤ . وـقـرـاءـةـ الـجـمـهـورـ : « وـنـهـرـ بـقـتـحـيـنـ » .

(٦) فـيـ النـسـخـيـنـ : « يـنـصـبـ » ، صـوـابـهـ مـاـ ثـبـتـ .

(٧) فـيـ النـسـخـيـنـ : « وـالـجـسـرـ » يـاقـمـ الـوـادـ .

لَا تُمْرِّرُ عَلَيْهِ ذَبَابٌ لَا تَهَا جُنُدُّوْعٌ مَقِيَّدَةٌ بِلَا طِينٍ ، وَمَا يَمْتَشِي عَلَيْهِ الْمَاشِي إِلَّا
بِالْجَهَدِ ؟ فَمَا ظُلْكُ بِالْحَوَافِرِ وَالْخَفَافِ وَالْأَظْلَافِ ؟

وَعَامَّةُ الْكُوفَةِ خَرَابٌ يَبَابُ^(١) ، وَمَنْ بَاتَ فِيهَا عَلَمَ أَنَّهُ فِي قَرْيَةِ مِنْ
بَهْرَىٰ . وَرَسْتَاقٌ مِنْ الرَّسَاتِيقِ ، مَا يَسْعَىْ مِنْ صِيَاحِ بَنَاتِ آوَىٰ ،
وَضِيَاحِ الشَّعَالِبِ ، وَأَصْوَاتِ السَّبَاعِ^(٢) . إِنَّمَا النَّفَرَاتِ دَمَّا^(٣) إِلَى
مَا اتَّصَلَ بِهِ إِلَى بِلَادِ الرُّوقَةِ ، وَقُوقَقَ ذَلِكَ .
فَإِنَّمَا نَهَرَهُمْ فَالنَّيلُ أَكْبَرُ مِنْهُ ، وَأَكْثَرُ مَاءً ، وَأَدْوَمُ جَرِيَّةً^(٤) .

وَقَدْ تَعْلَمُونَ كَثْرَةَ عَدِّ أَنْهَارِ الْبَصَرَةِ ، وَغَلْبَةَ الْمَاءِ ، وَتَطَفُّعِ الْأَنْهَارِ^(٥) .
وَتَبَقِّيُّ النَّخْلَةُ عَشْرَيْنَ وَمِائَةً سَنَةً وَكَانَهَا قِدْحٌ^(٦) . وَلِيُسْرَىْ مِنْ
قُرْبِ الْقَرْيَةِ الَّتِي يَقَالُ لَهَا «النَّيْلُ» إِلَى أَقْصَى أَنْهَارِ الْكُوفَةِ نَخْلَةُ طَالْتُ
شَيْئًا إِلَّا وَهِيَ مَعْوِجَةٌ كَالْمِنْجُلِ . ثُمَّ لَمْ نَرْ غَارَسَ نَخْلٍ قَطُّ فِي أَطْرَافِ
الْأَرْضِ يَرْغُبُ فِي فَسِيلِ كَوْفَىٰ^(٧) ، لَعْلَمُهُ يَخْبُثُ مَغْرُوسَهُ ، وَسُوءُ نُشُوهُهُ ،
وَفَسَادُ تُرْبَتِهِ ، وَلَوْمُ طَبَعِهِ .

وَلِيُسْرَىْ لِلَّيَالِ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي مَسْجِدِهِمْ غَضَارَةً وَلَا بَهَاءً ، وَلِيُسْرَىْ مَنَارِ
مَسَاجِدِهِ^(٨) عَلَى صُورَ مَنَارِ الْبَصَرَةِ ، وَلِكُنْ عَلَى صُورَ مَنَارِ الْمَكَانِيَّةِ
وَالْيَعْقُوبِيَّةِ^(٩) .

(١) الْيَبَابُ : إِبَابُ الْحَرَابِ بِمَنَاهِهِ ، وَفِي النَّسْخَتَيْنِ : «نَيَابُ» ، تَحْرِيفُ ب.

(٢) بِ : «النَّيَالُ» ، وَتَقْوِيْتُ كَراَدَ ، وَالْوَجْهُ مَا أَثْبَتَ مِنْ مِ.

(٣) كَنَافِيُّ النَّسْخَتَيْنِ .

(٤) فِي النَّسْخَتَيْنِ : «جَرَةٌ» ، وَالْوَجْهُ مَا أَثْبَتَ .

(٥) التَّلْفُخُ : مَطَاعُونٌ طَفَحَهُ تَطْفِيْلًا : مَلَهُ ، وَمَمْ تَذَكَّرُ الْمَاجِمُعُ هَذَا الْمَطَاعُونُ .

(٦) الْقِدْحُ ، بِالْكَسْرِ : الْمِسْمَى قَبْلَ أَنْ يَرْأَى وَيَنْصُلُ . وَانْظُرْ خَاضِرَاتِ الرَّاغِبِ ٢٦٤٠: ٢ .

(٧) فِي النَّسْخَتَيْنِ : «لَوْقٌ» ، سُواهُ مَا أَثْبَتَ .

(٨) بِ : «مَسْجِدُمْ» . وَالْمَنَارُ : جَمِيعُ مَنَارَاتِهِ ، وَهِيَ الْمَذَنَةُ .

(٩) انْظُرْ مَا مَفَى فِي ٣ : ٣١٠ .

وَرَأَيْنَا بِهَا مَسْجِدًا خَرَابًا تَأْوِيْهُ الْكَلَابُ وَالسَّبَاعُ ، وَهُوَ يَضَافُ إِلَى
عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَلَوْ كَانَ بِالْبَصَرَةِ بَيْتُ دَخْلَهُ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ مَارًّا لِتَمْسَحُوْهُ بِهِ
وَعَمَّرُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ .

وَخَبَرْنِي مِنْ بَاتِ أَنَّهُ لَمْ يَرْكَوْهُمْ بِكَبَّاهَا زَاهِرَةً قَطُّ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَرَهَا إِلَّا
وَدُونَهَا هَبْوَةً^(١) ، وَكَانَ فِي مَا تَهِمْ مِزَاجَ دُهْنٍ . وَأَسْوَاقُهُمْ تَشَهَّدُ عَلَى أَهْلِهِمْ
بِالْفَقْرِ . وَهُمْ أَشَدُّ بِغْضَبًا لِأَهْلِ الْبَصَرَةِ مِنْ أَهْلِ الْبَصَرَةِ لَهُمْ ، وَأَهْلِ الْبَصَرَةِ
هُمْ أَحْسَنُ جَوَارًا ، وَأَقْلُ بَدْخَانًا ، وَأَقْلُ فَخْرًا .

ثُمَّ الْعَجَبُ مِنْ أَهْلِ بَغْدَادِ وَمِيلَهُمْ مَعَهُمْ ، وَعَيْنِهِمْ إِيَّانَا فِي اسْتِعْمَالِ
السَّمَادِ فِي أَرْضَنَا وَلِنَخْلَنَا ، وَنَنْحَنُ نَرَاهُمْ يُسْمِدُونَ بِقُوَّتِهِمْ بِالْعَدْرَةِ^(٢)
الْيَابِسَةِ صِرْفًا ، فَإِذَا طَلَعَ وَصَارَ لَهُ وَرَقٌ ذَرَوْا عَلَيْهِ مِنْ تَلْكَ الْعَدْرَةِ الْيَابِسَةِ
حَتَّى يَسْكُنَ فِي خَلَالِ ذَلِكَ الْوَرَقِ .

وَيَرِيدُ أَهْدُهُمْ أَنْ يَبْنَى دَارًا فِي جِيَجِهِ^(٣) إِلَى مَرْبِلَةٍ^(٤) ، فَيَضْرُبُ مِنْهَا
لَبِنَا ، فَإِنَّ كَانَتْ دَارَهُ مَطْمَئِنَّةً ذَاتَ قَعْدَهِ حَشَانٌ مِنْ تَلْكَ الْمَرْبِلَةِ الَّتِي
لَوْ وَجَدَهَا أَصْحَابُ السَّمَادِ عَنْدَنَا لَبَاعُوهَا بِالْأَمْوَالِ الْأَنْفُسِيَّةِ .

ثُمَّ يَسْجُرُونَ تَنَانِيرُهُمْ بِالْكُسَاحَاتِ الَّتِي فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَبِالْأَبعَادِ
وَالْأَخْتَاءِ ، وَكَذَلِكَ مَوَاقِدُ الْكِيرَانِ^(٥) .

(١) الْهَبْوَةُ : الْتَّرْبَةُ . وَفِي النَّسْخَتَيْنِ : «هَفْوَةٌ» ، تَحْرِيفُ ب.

(٢) فِي النَّسْخَتَيْنِ : «بَعْدَرَةٌ» ، تَحْرِيفُ ب.

(٣) الْمَرْبِلَةُ ، بَقْعَةُ الْمَيْمَ وَالْبَاهَةِ ، وَيَنْتَهِيَّا مَعْنَى الْبَاهَةِ : الْمَوْضِعُ الَّتِي يَلْقَى فِي الزَّرِيلِ .

(٤) الْكِيرَانُ : بَعْجُ كُورُ ، بَالْفَمِ ، وَعَوْجُمَرَةُ الْحَدَادِ . مِ : «الْكِيزَانِ» ، صَوَابُهُ
فِي بِ .

وتمثل ركابا^(١) دورهم علية فلا يصيرون لها مكاناً، فيمحفرون لذلك في بيوتهم آباراً، حتى ربما حفر أحدهم في مجلسه، وفي أنيبل موضع من داره . فليس ينبغي لمن كان كذلك أن يعيي البصريين بالتسميد .

١٧ - فصل منه

وليس في الأرض بلدة أرقى بأهلها من بلدة لا يعزُّها النقد ، وكل مبيع بها يمكن إلأ البصرة : طعامهم أجود الطعام ، وسعدهم أرخص الأسعار ، وتورهم أكثر التمور ، وربيع دنسهم أكثر^(٢) ، وعلى طول الزمان أصيل ، يبقى تمرُّهم الشهير^(٣) عشرين سنة ، ثم بعد ذلك يختلط بيته فيجيء له الدبس الكبير ، والذهب الحلو ، والخاثر القوى^(٤) .

ومن يطبع من جميع أهل النخل أن يبيع فسيلة بسبعين ديناراً ، أو بحونه^(٥) بمائة دينار ، أو جريباً بالف دينار^(٦) غير أهل البصرة ؟

١٨ - فصل منه

ولأهل البصرة المد والجزر على حساب منازل القمر لا يغادران من ذلك شيئاً . يأتيمهم الماء حتى يقف على أبوابهم ؛ فإن شاءوا أذنوا ، وإن شاءوا حجبوه .

(١) بـ : «والآجر والجنس» .

(٢) في النسختين : «يكون أسلارها ممكناً» ، والوجه ما ثبت .

(٣) الربع ، بالفتح : فضل كل شيء ، كريم الجن والدقيق والبزور وغورها .

(٤) الشيريز يكسر الشين وضئها : ضرب من القر ، ويقال أيضاً شيريز بالسين المهملة وبكسر السين وضئها . بـ : «زيقاً» مـ : «بيقاء» ، ووجهه ما ثبت .

(٥)

الخاثر

: التلبيط . بـ : «والخاثر» تصحيف .

(٦) البحونة بفتح الباء والواو : ضرب من القر .

(٧) الجريب : مساحة تربو على ثلاثة آلاف وستمائة ذراع ، يختلف ذلك باختلاف البلدان .

(٨) - رسائل الملاحظ - ج ٤

أو بالأهواز ، وفي موضع من هذه الموضع ، بلغت نفقتها مائة ألف درهم ، فإنَّ البصري إذا بنى مثلاً بالبصرة لم ينفق خمسين ألفاً ، لأنَّ الدار إنما يتم بناؤها بالطين واللبن ، وبالآجر والجص^(١) ، والأجزاء والساخ والخشب ، وال الحديد والصلب ، وكل هذا يُمكن بالبصرة على الشطرِ ما يُمكن في غيرها . وهذا معروف .

ولم نر بلدة قط تكون أسعارها ممكنة^(٢) مع كثرة الجماجم بها إلا البصرة : طعامهم أجود الطعام ، وسعدهم أرخص الأسعار ، وتورهم أكثر التمور ، وربيع دنسهم أكثر^(٣) ، وعلى طول الزمان أصيل ، يبقى تمرُّهم الشهير^(٤) عشرين سنة ، ثم بعد ذلك يختلط بيته فيجيء له الدبس الكبير ، والذهب الحلو ، والخاثر القوى^(٥) .

وبالبصرة الأمان ممكنة والممتنان ممكنة ، وكذلك الصناعات ، وأجرُ أصحاب الصناعات . وما ظنك ببلدة يدخلها في البادي^(٦) من أيام الصرام إلى بعد ذلك بأشهر ، مابين ألفي سفينة تمر أو أكثر في كل يوم ، لا يبيت فيها سفينة واحدة ، فإنْ باتت فإنما صاحبها هو الذي يُبيتها ، لأنه لو كان خط^(٧) في كل ألف رطل قيراً طلاقاً لانتُسافت انتسافاً^(٨) .

ولو أنَّ رجلاً ابتنى داراً يُتممها ويكمّلها ببغداد ، أو بالكوفة ،

(١) الركابا : جمع ركبة ، وهي البئر .

(٢) بـ : «فيها» ، مـ : «ففيها» .

(٣) مـ : « حاجتهم » .

(٤) أى البادى ، وهو الأول .

(٥) أى وضيع من الفن وأرجحه .

(٦) القبراط بالعراق : نصف عشر الدينار . بـ : «لا انتُسفت» ، صوابه في مـ .

ومن العجب لقومٍ يعيرون البصرة لقرب البحر والبطيحة^(١) ،
ولو اجتهد أعلم الناس وأنطع الناس أن يجمع في كتاب واحد منافع
هذه البطيحة ، وهذه الأجمة ، لما قدرنا عليها .

قال زياد : قصبة خير من نخلة .

وبحقّ أقول : لقد جهّدت جهدي أن أجتمع منافع القصب ومرافقه
وأجناسه ، وجميع تصرفه وما يعني منه ، فما قدرت عليه حتى قطعه
وأنا معترف بالعجز ، مستسلم له :

فاما بحرنا هذا فقد طم على كل بحر وأوى عليه ، لأن كل بحر
في الأرض لم يجعل الله فيه من الخيرات شيئاً ، إلا بحرنا هذا ، الموصول
ببحر الهند إلى ما لا تذكر .

وأنت تسمع ملوحة ماء البحر ، وتستسقّطه وتزرى عليه . والبحر
هو الذي يخلق الله تعالى منه الدر الذي يبعث الواحدة منه بخمسين
ألف دينار ، ويخلق في جوفه العنبر ، وقد تعرفون قدر العنبر . فشيء
يولّد هلين الجوهرين^(٢) كيف يمحقر ؟

ولو أنا أخذنا خصال هذه الأجمة وما عظمنا من شأنها ، فقدفنا بها
في زاوية من زوايا بحرنا هذا لضلت حتى لا نجد لها حسناً ، وهما لنا
خالصان دونكم ، وليس يصل إليكم منها شيء إلا بسبينا^(٣) وتعدينا
فضل غنا^(٤) .

(١) البطيحة : أرض واسعة بين واسط البصرة ، يحيى بطالح ، سميت بذلك لأن المياه
تبطح فيها ، أي سالت وانسمت في الأرض .

(٢) م : « المجرة » ، صوابه في بـ .

(٣) بـ : « بسبينا » ، صوابه في مـ .

(٤) كذا في النسختين .

وقال بعض خطبائنا^(١) : نحن أكرم بلاداً ، وأوسع سواداً^(٢) ،
وأكثر ساجاً وعاجاً ودباجاً ، وأكثر خراجاً .

لأن خراج العراق مائة ألفٍ وإثنا عشر ألفاً ، وخرج
البصرة من ذلك ستون ألفاً ، وخرج الكوفة خمسون ألفاً .

١٩ - فصل منه في ذكر الحيرة

ورأيت الحيرة البيضاء وما جعلها^(٣) الله بيضاء ، وما رأيت فيها
داراً يُذكَر^(٤) إلّا دار عن النصارى العباداني^(٥) .

ورأيت التربة التي بينها وبين قصبة الكوفة ، ورأيت لون الأرض
فإذا هو أكبّ^(٦) كثير الحصى ، خشنّ المسن .

والحيرة أرض باردة في الشتاء ، وفي الصيف يتزرون سُتُورَ بيوتهم
مخافة إحراق السمائم لها .



(١) هو أبو بكر المفلل ، كما في البيان ١ : ٢ / ٢٥٧ : ٩٤ ، ونسب بعض هذا القول
إلى خالد بن صفوان في معجم البلدان (رسم البصرة) ومحاضرات الراغب ٢ : ٢٦٤ .

(٢) السواد : القرى والريف . وفي النسختين : « سواداً » .
(٣) في النسختين : « وما جعله » .

(٤) في النسختين : « يذكر » ، والدار مؤنة .

(٥) ذكره المباحث في الميزان ٤ : ٢٧ قال : « وكان طهانو رئيس الجاثليق ، قد مـ
بحريم كلام عن البادي عند ما بلنه من اتخاذ السراي ، والمروف في النسبة إلى « البادي » :
عيادي .

(٦) الكهبة ، بالضم : غبرة مشربة سواداً .